المكتبة الثقافية
١٤٩

أضواء على الفكر العربي الإسلامي

أنور الجندي

الدار
المصرية
للتأليف
والترجمة

١٥ يناير سنة ١٩٦٦

المكتبة الثقافية
١٤٩

أضواء على الفكر العربي الإسلامي

أنور الجندي

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقي - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

واجهت الفكر العربى الاسلامى حملة ضخمة من الخصومة والعداء والتحريض ، حاولت هذه الحملة أن تزيف الحقائق وتنكر فضل العرب على الحضارة الانسانية . فاذا حاولت أن تعترف بهذا الفضـــل ادعت أن العـــرب كانوا نقلة ومترجمين . واتصل بهذا اتهام باسم الجنس « الآرى » بوصفه السابق المبتكر والجنس « السامى » بوصفه الخيالى المتخلف ، اما القرون الوسطى فهى قرون الظلام والجهل ، اما اللغة العربية فهى كاللغـــة اللاتينية يجب أن تدخل المتحف ويغلب على كل قطر لهجته ، اما اليقظة فانها لم تكن الا بفضل الغزو الأوربى ، ثم هناك نظريات الفرعونية والفينيقية والبربرية . ثم كيف أن الفكر العربى الاسلامى لا منهج له . وأنه فكر غيبى قائم على الظن والسماع وبعيد عن الوثيقة والتجربة .

والواقع أن كل هذا كان جزءا من حملة تزييف الحقائق التى حمل لواءها الغزو الأجنبى والاستعمار الفكرى الذى كان يطمع فى أن يسيطر على هذه الأمة عن طريق ثقافتها فيهدم مقوماتها الأساسية ويذيب شخصيتها .

ولقد مر وقت طويل دون ان نتنبه لما يراد من وراء اقصائنا من فهم حقيقة دورنا الذى قمنا به والذى ما زال ممتدا . يؤثر فى الفكر الانسانى ويمده دائما ، ولقد جرت المحاولات لوصف هذا « الفكر العربى الاسلامى » بأنه « تراث » .

ولا شك ان التراث هو ما تخلفه الحضارات البائدة والثقافات المنقرضة وينطبق ذلك على تراث الاغريق والرومان والفراعنة . لأن مدنية هذه الشعوب قد مضى بها الزمن . اما الفكر العربى الاسلامى فما زال حيا باقيا ، وما تزال الأمة العربية والعالم الاسلامى تتأثر به وتزاوله وتضيف اليه وتحققه ، وهو حى متفاعل وباق متطور لم تتوقف حركته ولم تخمد جذوته حتى بعد أن توقفت الدولة فى ظل النفوذ الاجنبى .

وليس يعنى هذا اننا نحاول بهذا الفهم أن نقصر انفسنا فى حدود محدودة من عوالم الفكر ولكنا نحاول بهذه النظرات أن نكمل الصورة التى تصبح ناقصة ومبتورة اذا ظلت على ما القى اليها من شبهات . وانه لكى نندفع فى نهضتنا الى الأمام بقوة ورصانة لا بد من قاعدة ثابتة مكينة نبنى عليها ؛ تلك هى ثقافتنا وتاريخنا .

فقد اتصل الفكر العربى الاسلامى بالثقافات المختلفة من هندية وفارسية ويونانية اتصالا حرا لم يقيده نفوذ ولم يفرض عليه اختيار فاختار منه ما يناسب مقوماته

الأساسية بعد ان اختبره وغربله وحققه واضافه الى كيانه ثم خطا به خطوات وابتدع فنونا جديدة ، ولقد كان هدف الفكر العربى الاســـلامى فى جوهره : تحرير الانسانية من الوثنيات . وكان طابعه التقدم فى مجال العلم مع سيادة الخلق والعدل . وتكريم الانسان ورفع قدره ؛ دون أن تغلبه المادة بل يظل هو المسيطر عليها .

وعندنا ان امتنا اليوم وهى تشق طريقها بقوة فى المجال العالمى رائدة تحمل لواء التقدم وروح العصر وتساهم فى الحضارة والصناعة والفكر ، ولكى تستطيع ان تندفع فى طريق البناء والخلق ، واستعادة مكانها الانسانى ، واسترجاع دورها فى قيادة العالم ، لا بد أن تتفهم حقيقة دورها الذى قامت به ، فان هــذا التعرف المستنير ، ليس عودة الى التشبث بالماضى ، وانما هو كشف عن جوهر هذه الشخصية القادرة التى أشادت من قبل وعملت ، وتستطيع اليوم أن تسترد مكانتها وان تشيد لبنات جديدة فى بناء الحضارة أو على حد قول قدرى حافظ طوقان : « أن يعتقــد العربى بقابليته وأن يؤمن بنبوغه وانه فى مكانه أن ينتج وأن يبدع ، وأن الأمة التى تبغى مجداً وسؤدداً عليها أن تخلق فى الأفراد روح الايمان بقــابليتهم للابتداع وأن تنشىء فيهم شعورا بالعزة القومية ، وذلك بالاهتمام بماضيها وربطه بحاضرها » .

ولقد قام الفكر الأوربى الحديث على حد تقدير عشرات من الباحثين والمؤرخين علي اعمــدة من التراث الاغــريقى

والروماني والمسيحي ، دون أن يعترف بانفصال بين الفكر الحديث وبين قاعدته الأساسية ذات المقومات الواضحة وكذلك نحن في يقظتنا لا ننفصل عن فكرنا العربي الاسلامي ولا نحاول أن نعتبره تراثا كما تريد دعوة التغريب ، بينما هو في الحقيقة يمثل القوة العقلية والكيان الثقافي للوحدة العربية ، فضلا عن انه عمل حي متطور شاركت فيه كل العناصر التي عاشت في محيط العالم الاسلامي ، وقد اتصل بكل الثقافات التي سبقته اتصال تأثر وتأثير واضافة وحذف وترجمة وابداع على السواء .

واذا كان كتّابنا ومفكرونا لم ينصفوا الفكر العربي الاسلامي أو رددوا آراء دعاة الغزو الفكري والتغريب ، فان جملة من كتّاب الغرب المنصفين قد استطاعوا أن يكشفوا عن جوهر هذا الفكر واثره في الحضارة الحديثة ودوره الممتد المطرد وحاجة الانسانية الى عناصره ومقوماته ، حاجة لا تنتهي ولا تتوقف ، ولا يزال الأبرار من فلاسفة العصر يؤمنون بأن الحضارة القائمة في حاجة الى سناد من الفكر العربي الاسلامي الذي يمزج بين المادة والروح وأن هذه الحاجة تزداد مع الأيام .

ومن هنا يبدو أن الذين حملوا على الفكر العربي الاسلامي . انما كانوا يهدفون الى تدمير مقومات شخصيتنا الأساسية ، واذابتنا في التيارات المتضاربة المختلفة من نظريات وأفكار

لا تجعلنا من الغرب ولا من الشرق بل تقذف بنا فى متاهات الفكر الأمى .

***

وليس أدل على عظمة تراثنا من القاء نظرة على دورة الكتاب العربى فى العالم .

وحتى تبدو هذه الصورة واضحة لا بد من القاء بعض الظلال فقد كانت مكتبة دار الحكمة فى أيام هارون الرشيد تحوى مليون كتاب . اما المأمون فقد نقل الى بغداد مائة حمل بعير من الكتب من أوربا حتى أنه جعل ذلك فى عقد الصلح بينه وبين ملوك الروملى الشرقى . وقد أشار ابن سينا الى مكتبة نوح بن منصور سلطان بخارى وكانت تحوى حمل اربعمائة جمل . أما مكتبة الواقدى فكان بها ٦٠٠ صندوق تساوى ١٢٠ حمل جمل ، وضمت مكتبة دار الحكمة التى انشأها الحاكم بأمر الله مليون و ٦٠٠ الف مجلد وكانت مكتبة طرابلس الشام تحوى ٣ ملايين كتاب تحت عناية قضاة آل عمار . وكان لآل عمار فى هذه الخزانة مائة الف ناسخ تجرى عليهم الأرزاق سنويا ، وقد وقعت هذه الخزانة فى أيدى الصليبيين عام ٥٠٣ هجرية . فأحرقها الفرنجة وصارت رمادا . كما أحرق الفرنسيون كل ما وجدوه من مخطوطات ومطبوعات بمكتبات قسنطينة عندما احتلوا الجزائر سنة ١٨٣٠ .

اما فى الأندلس فقد كانت هناك ٧٠ مكتبة وكانت بمكتبة غرناطة فى عهد عبد الرحمن الثالث ٦٠٠ ألف مجلد . وكانت دواوين الشعر فيها تملأ ٨٨٠ صفحة من فهرسها . هذه المكتبة التى حرقها الكردينال كمنيس مطران طليطلة فى ساحة المدينة ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة من كتب الطب.

وقد كان فى كل جامع كبير مكتبة ، اذ كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد ، وكان الحكم صاحب الأندلس يبعث رجالا الى جميع بلاد المشرق ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها وكان فهرس مكتبته يتألف من أربع وأربعين كراسة . وقيل كان بخزانته ٤٠٠ ألف مجلد . وفى مصر كانت للخليفة العزيز خزانة كتب كبيرة قال المقريزى ان بها مليون و ٦٠٠ ألف مجلد .

وقد ذكر عنده كتاب العين للخيل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة ، منها نسخة بخط الخليل بن احمد ، وحمل اليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار .

وقال المقريزى ان خزانته كان بها ألف وستمائة ألف كتاب ، ومن المؤلفين من بلغت تصانيفه مئات . وأن هناك مؤلفات كانت فى عشرات المجلدات . فأبو عبيدة له مائتا كتاب ، والكندى واحد وثلاثون ومائتان ، والرازى مائتان ، وابن حزم أربعمائة ، وللقاضى الفاضل مائة ، وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألف كتاب .

وقد نسب ابن خلكان والقفطي ان لعلى بن حزم اربعمائة مجلد فى التاريخ والدين والحديث والمنطق وعد أخصب مؤلف فى الاسلام .

وفى مكتبة الاسكوريال ٦٠٠ ألف مجلد منها ٥٠٠ ألف مطبوعة والباقى من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وقد نقلت اليهـا مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش ١٦١٤ م وقوامها ثلاثة آلاف مجلد . وقد ظلت منذ القرن السـابع عشر محجوبة عن الناس . ثم شبت النار فى الاسكوريال فى ٧ يونيو ١٦٧٤ حيث سقطت صاعقة على المكتبة فأحرقت منها خمسة آلاف مجلد .

وقد وصل الينا من ثروتنا هذه ثلاثون ألف كتاب فى حين أن بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضعة مئات ، فقد كتب الكندى واحدا وثلاثين ومائتين ، والرازى مائتين ، وابن حزم أربعمائة ، والقاضى الفاضل مائة ، وعبد الله بن حبيب عالم الأندلس ألف كتاب . وذكر جبيبون فى كتابه عن الدولة الرومانية أنه كان فى طرابلس وحـــدها على عهـــد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلدا أحرقها الفرنجة عام ٥٠٢ هجرية ١١٠٠ م .

وفى الحروب الصليبية خلال مائتى عام أحرقت هذه الكتب ونقلت . كما نقلت من جزيرة قبرص وكريت وجزائر البليار ونقلت من الأندلس ثم نقلت أخيرا من الآستانة ثم

كانت حملة نابليون على مصر حريصة على الحصول على اكبر قدر من هذه المؤلفات النادرة .

والآن لا تخلو مكتبة من مكتبات أوربا : بريطانيا وفرنسا والمانيا وايطاليا والفاتيكان وهولندا . وكذلك مكتبات أمريكا من مئات المخطوطات العربية .

وعندما تنبه العرب والمسلمون الى جمع البقية الباقية من هذه المخطوطات المذخورة فى القصور وبدرومات البيوت القديمة بعد منتصف القرن التاسع عشر كان الغربيون قد سبقوهم الى جمع عدد كبير باغراء أصحابها بأعطية ومنح ونياشين .

وقد أمكن استنقاذ عدد كبير من هذه الكتب مما بقى فى الجوامع والكنائس والمدارس . كالخزانة الأحمدية والمارونية فى حلب والخالدية فى القدس وخزانات المرجانية فى الحيدرخانة وآل كيلانى والألوسي وغيرها فى بغداد والخزانة الصادقية فى تونس وبعض الخزانات فى مراكش .

وفى مصر وجدت عشرات من خزانات الكتب .

وقد ضمت أغلب هذه الخزانات الى دار الكتب المصرية .

وكان أحمد زكى (باشا) وأحمد تيمور (باشا) من أبرز العاملين فى هذا الميدان للحصول على المخطوطات العربية المنثورة فى مكتبات ليدن والاسكوريال واستانبول وكمبردج واكسفورد . أو تصويرها بالفوتوغرافيا اذا تعذر الحصول عليها . وكان لأحمد زكى (باشا) دور كبير فى هذا المجال

فقد استطاع أن يحصل على أكثر من ستة آلاف مخطوط . كما نقل بالفوتوغرافيا ما لم يستطع الحصول عليه بالشراء .

وقد جمع زكى باشا ١٨٧٠٠ مجلد كما جمع تيمور باشا ١٢٠٠٠ مجلد .

وقد زار أحمد زكى (باشا) مكتبة الاسكوريال قبل عام ١٨٩٤ ووجد بها عديدا من الكتب العربية من نوع وحيد فى بابه ولا يوجد لها نسخ أخرى فى غيرها من دور الكتب .

وقد أشار الى واقعة احراق ألف ألف كتاب أحرقت باحتفال مشهور وكيف أنها دفعت العرب الى تهريب أغلب الكتب الى المغرب وتونس ، وقد حدث أن فقدت تونس كمية ضخمة منها فى حركة هجوم الفرنسيين عليها ونهبها عام ١٥٣٦ م .

أما ما أرسل الى المغرب (مراكش) فان جانبا منه لا يزال محفوظا حتى اليوم والجزء الباقى وقع فى أيدى الاسبانيين فى النصف الثانى من القرن السابع عشر فان مكتبة مولاى زيدان سلطان مراكش وعددها عشرة آلاف مجلد كانت موجودة فى سفينة حربية لسبب ما وتصادف أن مراكب الاسبانيين ضبطت تلك السفينة ومن ثم أودعت هذه المكتبة فى قصر الاسكوريال .

ولا بد أن يذكر هنا ما حمله الأتراك العثمانيون من مصر عند استيلائهم عليها عام ١٥١٤ مع ما نقلوا من تحف . وقد وجد زكى باشا فى مكتبة (طوب قبو) ألوف الكتب العربية

محجوزة هنـــاك . وقد استطاع أن ينقـــل عددا منهـــا بالفوتوغرافيا . وكانت فى القاهرة مكتبات كثيرة لدى بعض الأسر القديمة تنافس على شرائها زكى وتيمـــور فقد كانا يطالعان الصحف اليومية يوميا ليريا متوفيا يرثيان مكتبته وقد اشتريا مكتبة الشيخ طاهر الجزائرى الذى رفض أن يبيعها للأجانب .

وقد حرصت دور الارساليات الأوربية والامريكية التى قامت فى القاهرة وبيروت منذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر أن تستولى على كل ما يســـتطيع من مخطوطات وأن ترسلها الى دوائرها فى الغرب واستطاعت هذه المؤسسات أن تحصل على ألف مؤلفة من هذا الكتب . وقد وقع ذلك فى نفس الوقت الذى عجزت فيه دور الكتب العربية عن حماية هذه المخطوطات وقد روى زكى باشا أن كتبا كانت تحمل الى دار الكتب المصرية فتعرض ثمنـــا للواحد منها ١٥ جنيها مثلا فاذا عرضت على الارسالية العلمية الفرنسية فى القاهرة اشترت نفس الكتاب بثمانين جنيهـــا ووساما وأسرعت فأرسلت الكتاب الى باريس .

وفى مذكرة لزكى باشا أشار الى أنه نتيجة لحركة « نهب » الكتب العربية النفيسة التى قامت بها الحملة الفرنسية . وكانت هذه الكتب قد أخفاها أجدادنا بعد الفتح العثمانى . وقال « كل من ذهب الى باريس واطلع على فهـــرس دار الكتب الأهلية فيها يأخذه العجب العجاب ان لم تســـاوره

الأشجان والأحزان فلقد أصبحنا اذا احتجنا الى شيء من المؤلفات العربية الخاصة بمصر لا نرى منها شيئا فى بلادنا ولا بد من الرحلة والتغرب لنطلبها فى بلاد الغرب .

والى جانب قصة سرقة الكتاب العربى واخراجه من العالم الاسلامى والبلاد العربية بكل الوسائل والمغريات ونقله الى خزائن الكتب فى أوربا ، منذ الحروب الصليبية وبعدها ، فهناك قصة الاضطهاد الذى لقيه بحرقه وتبديده فى أكثر من مكان ، فى الأندلس بمدينة غرناطة عندما حرق فى يوم واحد نحو ألف ألف كتاب هذا بالاضافة الى ما أغرقه التتار فى نهر دجلة عند احتلال بغداد . وفى عبارة لزكى باشا ان ما أحرق وأغرق بلغ تسعة أعشار ونصف وثلث وربع الكتب العربية وأنه لم يخلص لنا بعد ذلك غير واحد فى الألف » .

***

ولعل أبرز الاتهامات التى توجه الينا هى أن يقظة العالم الاسلامى والأمة العربية انما جاءت بفضل البعثات التبشيرية والحملة الفرنسية واذا لا بد من تفصيل للرد على هذا الرأى نقول ان الفترة التى سيطر فيهبا الأتراك العثمانيون على العالم الاسلامى كانت فترة خمول للفكر العربى الاسلامى بصفة عامة . اذ لم يكن للفكر العربى ملامح خاصة يتميز بها . فقــد دخلت الأمة العربية فى نطاق الامبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ واستمرت حتى عام ١٩١٧ ، أى أنها

أمضت أربعمائة سنة فى نطاق هذه الامبراطورية التي بدأت تهوى الى الضعف منذ عام ١٨٦٣ عندما أغار الأتراك على على أسوار (فيينا) وارتدوا عنها . وكانت هذه أول هزيمة لهم فتحت أعين الغرب على ضعف الامبراطورية مما دفعه الى مواصلة الحملات عليها وفتح عينيـــه على بدء معركة الانقضاض والغزو .

واذا كان الغـــزو الأوربى للشرق قد بدأ بوصـــول (فاسكو دى جاما) الى الهند (مايو سنة ١٤٩٨) ومن ثم بدأت هزيمة الوحدات البحرية العربية وتحطمت أســاطيل العرب التجارية فى المحيط الهندى فلا شك أن انتصـــار الأتراك العثمانيين فى وراثة العرب والفرس فى حكم المنطقة وحمل لواء الزعامة السياسية والثقافية والدينية قد أخر الاصطدام الى ما بعد ذلك . غير أن الغرب لم يتوقف عن الغزو وذلك بمحاولة احراز دوله على امتيازات فى مختلف أقطار الامبراطورية العثمانية تكفل للتجار سلامة أشخاصهم وأملاكهم . ثم اتسعت هذه الامتيـــازات حتى أصبحت سلطانا ضخما لا سبيل الى مراجعته ، لها محاكمها وسلطاتها وقد تغلغل الفرنسيون قبل غيرهم فى العالم العربى وهنا تبرز قضية فكرية هامة طالما رددها كتاب الغرب وهى أن حركة اليقظة الفكرية فى العالم العـــربى قد بدأت بحملة (نابليون) على مصر سنة ١٧٩٨ أو بوصول الجمعيـــات

التبشيرية الفرنسية سنة ١٨٤٧ والامريكية سنة ١٨٦٨ الى بيروت واليها تنسب يقظة الفكر العربى .

ونحن نرى ومعنا كل الأدلة على أن اليقظة الفكرية قد سبقت هذا الغزو الفكرى الغربى بأمد طويل . وعندنا أنها بدأت بدعوة (محمد بن عبد الوهاب) الى تجديد الدين والعودة الى بساطته الأولى . واذا كان الشيخ عبدالوهاب قد ولد عام ١٧٠٣ وقام بدعوته فى حدود الأربعين فان يقظة الفكر العربى تكون قد بدأت قبل وصول الجمعيات التبشيرية الأوربية بمائة عام على الأقل . وقد كانت هـــذه الدعوة الفكرية السياسية بعيدة المدى فى تحرير الفكر العربى وايقاظه . ولا سيما بعد أن أتيح لها أن تتحول الى دولة فتية كانت لها اغارات على حدود الشام والعراق .

وكانت يقظة الفكر العربى منصبة على تأكيد الحقــائق الأساسية للفكر العربى الاسلامى وهو ما قامت عليه الحضارة العربية الاسلامية التى غزت بضيائها العالم كله واستمرت تؤثر فيه الى اليوم وهى فى موجزها تتمثل فى مبادىء محددة صريحة .

كرامة الانسان وحريته امتزاج الروحية بالمادية ، والعمل لليوم والغد معا ـ قل هاتوا برهانكم فى كل قضية (مبـــدأ سيادة العقل) حفظ التراث وزيادته . تجديد الفكر بالغربلة واقصاء القشور والاجتهاد والمواءمة مع التطـــور والزمن والبيئة . حمل لواء الحضارة والزيادة فيها . تكريم الطوائف

المختلفة ورعايتها اقامة عملية الصهر والوحدة واقامة الكيان الموحد . حماية الوطن والحضارة والتسلح واليقظة للعدو ، المقاومة واعتبار الدفاع عن الوطن دفاعا عن العرض ، تغليب السلام والاخوة والمحبة وعدم العدوان ، الدعوة الى العدل الاجتماعي ومساواة الأجناس ، والمفاضلة بالعمل والتضامن الاجتماعى ، الشورى وقبول الآراء المختلفة ودراستها .

وقد غاضت هـــذه الأسس فى ظلم الحـكم العثمانى الاستبدادى وفى خلال فترة الجمود التى حلت بالعالم العربى الاسلامى ، وكان أبرز ما سيطر على تفكير الأمة العربية : فقدان الثقة بالنفس . والاحساس بالهوان وذلك تحت تأثير العوامل الثلاث التى فرضها الحكم العثمانى . وكان انتقال نظام الحكم من الشورى الى الأتوقراطية المطلقة ، والاستبداد وقيام طائفة من العلماء ــ وهم فى نظر الأمة العربية الطبقة المثقفة العليا لتأييد هذا الاستبداد ــ كان سببا فى قتل الثقة فى النفس العربية .

وقد كانت دعوة ابن عبد الوهاب الى التجديد الفكرى الاسلامى وقيام هذه الدعوة من قلب الجزيرة العربية بالذات عاملا ضخما فى هذه الفترة ، لا سيما اذا ربطنا هذا بأن العالم الاسلامى قد وجد دائما مثل هذه الدعوات التجديدية للفكر على فترات ممتـــدة من تاريخه ، وحمـــل لواءها أمثال الغزالى ــ وابن تيمية .

وقد روى الجبرتى أن واعظا تركيا جلس فى جامع المؤيد

(١١٣٢) هجرية وكثر عليه الناس وازدحم المسجد بهم — وذكر ما يفعله أهل مصر بضرائح الأولياء ، وإيقاد الشموع والقناديل على قبورهم وتقبيل أعتابهم ووصف ذلك كله بأنه كفر يجب على الناس تركه .

وقد كانت الدعوة الوهابية فاتحة الدعوة الى تحرير الفكر العربى وقد تلتها بعد حركة تحرير الفرد التى دعا اليها المشايخ والعلماء فى مصر حين فرضوا على المماليك توقيع وثيقة بحقوق الشعب .

ومعنى هذا أن يقظة الفكر العربى قد انبعثت من أعماقه وصــدرت من فهم صـــادق لضرورة اســتعادة دورة فى الصدارة . ومقاومة الاستبداد العثمانى والنفوذ الأجنبى ولم يكن مصدر هذه اليقظة أى مصدر أجنبى .

المنهج العلمى العربى فى البحث

كان من أهم ما وجه للفكر العربى الاسلامى أنه فكر غيبى وانه ينقصه المنهج العلمى بينما الحقيقة أن هذا الفكر هو الذى ابتدع الأسس الأصلية للبحث العلمى .

ولا شك أن المراجعة الدقيقة للآثار والأبحاث التى كتبها المنصفون من المفكرين تثبت حقائق هامة فى مجال أولية البحث العلمى ، ومن شأن هذه الحقائق أن تغير النظرة السارية التى تنتظم عشرات من الكتب والمؤلفات المتداولة فى أنحاء العالم الاسلامى والتى كتبها علماء من الغرب أو كتاب من الشرق والتى تنكر هذه الزيادة للفكر العربى ، وأعتقد أنه قد آن الأوان لتصحيح هذه المفاهيم ، وكشف هذه الحقائق ، ورد الأمور الى اصولها وابراز فضل ذى الفضل وتنحية تحامل المتحاملين أو المتعصبين من خصوم أمتنا وهم كثيرون .

وقد وجهت الى فكرنا العربى الاسلامى حملة غير منصفة من أجل تصويره على نحو من أنحاء القصور أو الضعف أو التبعية ، وقد أريد بهذه الحملة أول ما أريد بها هدم « قيمنا » وقتل « مقوماتنا الأساسية » وتشويه ملامح «شخصيتنا» ، وابرازنا على النحو الذى لا طابع له ولا قيم ولا مقومات .

وتلك كانت مهمة الاستعمار الفكرى والغزو الثقافى وهى قضية كبرى لها دخائل ودقائق وفى حاجة الى اليقظة والحزم والدقة لمواصلة كشـــف جوانبها وتعميـــق البحث عن جذورها [1] .

وفى يقينى أن عشرات من الأفكار ذات الأثر الكبـــير فى تطوير الفكر الانسانى وبناء الثقافة والحضارة الحديثين قد بدأت خطوطها الأولى فى محيطنا وعلى أيدينا وأن فكرنا العربى كان فى الأغلب « أساسا جذريا » لأغلب فروع المعـــرفة الحديثة .

واذا كان الفكر الانسـانى قد أشرق فجره فى الشرق ، ثم تبلورت معالمه فى ثقافة اليونان وحضارة اللاتين ، فان الدور الذى أتيح لنا أن نقوم به بعـــد فى خلال أكثر من تسعمائة عام كان حين احتضنا هذا الفكر كله وحميناه ، ترجمة ومراجعة واضافة حتى بدأ يؤتى ثمراته فعلا ، وحين أسلمناه الى الغرب مرة أخرى ليدور دورة الفلك ومن هنا كانت هذه القوائم الأساسية التى تكونت لدينا ونمت ومازال مصدر القوة فى الثقافة والحضارة العالمية القائمة الآن .

ولعل أبرز هذه هذه القوائم ايماننا بأن هدف الحضارة

---

(١) الفكر العربى المعاصر فى معركة التغريب والتبعية الثقافية (ك) لأنور الجندى .

هو سيادة الخلق والمبادىء الشريفة ، وتغليب معانى العدل والاخاء والتكافل الاجتماعى .

وكان الرقى فى نظرنا هو تغلب الانسان على المادة وعلى اهوائه فى نفس الوقت .

واذا كانت هذه هى الحقيقة فان كثيرا من كتاب الغرب ما يزال يكابر فى الاقتناع بها ، فهم يحاولون عبور مرحلة طويلة من الزمن والتاريخ بأحداثها وآثارها البعيدة المدى فى الثقافة الانسانية فيربطون حضارة الاغريق بحضارة أوربا الحديثة متخطين تسعمائة عام من أنضر أيام الحضارة والفكر (٦٥٦ ـ ١٥٠٠) م .

فاذا كانت هذه المرحلة بالنسبة لأوربا هى العصور الوسطى المظلمة فما أحراها أن تكون بالنسبة للعالم كله مرحلة خصبة بعيدة المدى فى كل ما وصلت اليه الحضارة اليوم من عظمة وقوة .

فاذا ظهر مثلا « ابن خلدون » بنظريته المستحدثة فى فلسفة التاريخ ذهب بعض الكتاب الغربيين الى انكار هذا الأثر الواضح مقدمين عليه من جاءوا بعده من كتاب وفلاسفة الغرب .

واذا تحقق أن « دانتى » فى قصته الخالدة (الكوميديا الالهية) قد تأثر برسالة الغفران التى كتبها « المعرى » ذهبوا فى تكذيب ذلك بكل وسيلة .

ثم هم يذهبون الى أبعد من ذلك فيسرفون فى تصوير اثر النظرية اليونانية على الفكر الاسلامى .

وفى مجالات كثيرة تجرى المحاولات لهضم حق امتنـــا وفضلها فى الموسيقى فى أثر اللغة العربية ، وفى سبق العرب لدارون .. وعشرات من قضايا الفكر واجهها الغرب على هذا النحو .

***

يجرى هذا فى ظل القول بأن الفكر الغربى الحديث قد ابتدع « المنهج العلمى » الذى لم يعرفه العرب والمسلمون من قبل ، وينسبون هذا المنهج الى الفيلسوف الفرنسى ديكارت (١٦٥٠ م) .

ويقوم هذا المذهب عند « ديكارت » على أربع قواعد :

الوضوح ــ وهى الا أنظــر الى أى شىء بعين الحقيقة الا بعد أن أدرك أنه كذلك ، ومعنى ذلك انى أتلافى التسرع والتنبؤ ، ولا أتبنى من الآراء الا ما تجلى لعقلى بوضوح وسرعة يحولان دون الشك فيه .

التحليل ــ تجزئة كل مشكلة من المشاكل التى أقوم بدراستها الى أكبر عدد ممكن من الأجزاء وذلك للتمكن من حلها على أصلح وجه .

التدرج ــ وهو تسيير تفكيرى بانتظام فأبدأ بأبسط الأمور وأسهلها فهما . وأصـــعد تدريجيا لمعرفة أكثرها

تعقيدا على افتراض وجود النظام أيضا بين الأمور التى لا يتعلق بعضها ببعض .

الاعادة والاستقصاء ــ القيام باحصاءات تامة فى كل لحظة والقيام باعادات عامة لأتأكد من أنى لم أهمل شيئا .

***

فاذا كانت هذه هى نظرية الغرب فى البحث العلمى القائم على أساس الانصاف والنزاهة واطراح التعصب والهوى الشخصى ، فهل يمكن القول بأنها طبقت تطبيقا صحيحا ــ مع مفاهيم الفكر العربى الاسلامى ومقوماته . وهل تخلص علماء الغرب من عواطفهم وأهوائهم فى النظر الى قيمنا . الواقع أن هذه النظرية قد انحرفت عن أصولها فى كل ما يتصل بالعرب والاسلام .

بل ان الادعاء بأن هذه النظرية من ابتداع الفكر الغربى ليس صحيحا على اطلاقه والحقيقة المؤكدة أن العرب والمسلمين عرفوا « المنهج العلمى » وقوموه ووضعوا قواعده وأسسه وطبقوها تطبيقا منصفا فى كل ما اتصل بهم من قضايا الفكر .

وأن الاسلام فى أسسه الأولى التى أوردها القرآن قد دعا الى « البرهان » فى كل قضية « قل هاتوا برهانكم » ومن هنا نشأ فى مجال الفكر العربى الاسلامى ما يسمى

بالبحث عن الدليل ، والنهى عن التقليد ، وعدم الثقة بالنص الا بعد مطابقته للعقل واقرار مصدره .

وقد وصل الفكر العربى الاسلامى فى ذلك الى غاية النضج والقوة ، وعندما ترجمت آثار اليونان والاغريق لم يأخذها المفكرون المسلمون قضايا مسلما بها ولكنهم ناقشوها وراجعوها ، وقبلوا منها ورفضوا .

فابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٧م) يخالف ارسطو وافلاطون وغيرهما من فلاسفة اليونان فى كثير من النظريات والآراء فلا يتقيد بها ، بل يأخذ منها ما يقتنع به ويوافق مزاجه الاسلامى ويزيد عليه ، وعنده أن الفلاسفة يصيبون ويخطئون كسائر الناس ، ولذلك فهو لا يتقيد بآراء من سبقه بل يبحث فيها ويدرسها ويعرضها على المنطق والعقل ومختلف خبراته وقد جعل للتجربة مكانا واضحا فيما قبله واعتقد به ، ومن قوله « حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء وقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا » .

وابن رشد (١١٢٦ – ١١٩٨) يمضى فى طريق البحث العلمى خطوات أكثر عمقا واتساعا « يجب علينا اذا الفينا لمن تقدمنا من الأمم السابقة نظرا فى الموجودات واعتبارا لها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان ، أن ننظر فى الذى قالوه عن ذلك وما اثبتوه فى كتبهم ، فما كان منها موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشكرناهم عليه ، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم ، وعلينا أن

نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا فى ذلك ، وسواء كان هذا التعبير مشاركا لنا فى الملة أو غير مشارك اذا كانت فيها شروط الصحة .

و « ابن الهيثم » (٩٦٥ — ١٠٣٥ م) له فى مجال تقنين أصول البحث العلمى رأى واضح ونظرية كاملة يقول « يبدىء فى البحث باستقراء الموجودات وتصفح أحوال المبصرات وتميز خواص الجزئيات ، ويلتقط باستقراء مايخص البصر فى حال الابصار وما هو مطرد لا يتغير ، وظاهر لا يشتبه فى كيفية الاحساس ، ثم نترقى فى البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاد المقدمات والتحفظ فى الغلط فى النتائج ، ونجعل غرضنا فى جميع ما نستقرئه ونتصفحه استعمال العدل لا اتباع الهوى . ونتحرى فى سائر ما نجيزه وننتقده طلب الحق الذى به نثلج الصدور ونصل بالتدرج واللطف الى الغاية التى عندها يقع اليقين وتظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التى يزول معها الخلاف وتنحسم به مواد الشبهات » .

و « البيرونى » (٩٧٣ — ١٠٤٨ م) يصور مذهبه العلمى فى مقدمة كتابه الآثار الباقية عن القرون الخالية : « وعنده أن أقرب الأسباب (لمعرفة التواريخ التى تستعملها الأمم) هو معرفة أخبار الأمم السابقة وأبناء القرون الماضية ، لأن اكثرها أحوال عنها ، ورسوم باقية من رسومهم ونواميسهم ، ولا سبيل الى التوسل الى ذلك من

جهة الاستدلال بالمعقولات ، والقياس بما يشاهد من المحسوسات سوى التقليد لأهل الكتب والملل ، وأصحاب الآراء والنحل المستعملين لذلك ونعتبر ما هم فيه أساسا نبني عليه بعده ، ثم قياس أقاويلهم وآرائهم فى اثبات ذلك بعضها لبعض بعد تنزيه النفس عن العوارض المردئة لأكثر الخلق ولأسباب المعمية لصاحبها عن الحق ، وهى كالعادة المألوفة والتعصب والتظاهر واتباع الهوى والتغالب بالرئاسة . . وأشباه ذلك » .

وفى رسالة القاضى عياض عن « علم المصطلح » من الدقة والتفكير والاستنتاج تحت عنوان « تحرى الرواية والمجىء باللفظ » ما وصفه الدكتور أسد رستم ، بأن ما جاء فيها يضاهى أدق ما ورد فى الموضوع نفسه فى أهم كتب الافرنج فى ألمانيا وفرنسا وأمريكا وانجلترا . واذا كان هذا رأى الدكتور أسد رستم وبين كتابات القاضى عياض وبين كتابات الغربيين خمسة قرون فانه هو السابق الى اقرار هذه النظريات . ومن رأى الدكتور رستم « انه على الرغم من مرور سبعة قرون عليها فانه ليس بامكان رجال التاريخ في أوربا وأمريكا أن يكتبوا الآن أحسن منها » .

وقد أشار الدكتور قدرى حافظ طوقان الذى أورد عددا من النماذج فى هذا المجال فى كتابه « العلوم عند العرب » أن « العلامة النظام » سار فى كتاباته على الشك والتجربة وهما الركنان القائمان فى النهضة الحديثة فاعتبر

الشك أساسا للنجح وقال : الشاك أقرب اليه من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ولم ينتقل أحد من اعتقاد الى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك .

وقول أبى هاشم البصري : الشك ضرورى لكل معرفة . وقول الجاحظ « تعلم الشك فى المشكوك فيه تعلما ، فلو لم يكن الا تعرف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج اليه » .

ودعا « جابر بن حيان » الى اجراء التجربة ، « ان واجب المشتغل فى الكيمياء هو العمل واجراء التجربة وأن المعرفة لا تحصل الا بها .

وقد شك الجاحظ فيما أورده أرسطو من أن هناك طائرا قديرا على الاهتداء والطيران البعيد ، يبنى عشه فى منطقة الجبال التى هى شرقى العراق بأوراق شجر (الدار صينى) التى تنبت على حدود الصين . وقال : ولست أدفع خبر صاحب المنطق (يعنى أرسطو) عن صاحب الدار صينى ، وان كنت لا أعرف الوجه فى أن طائرا ينهض من وكره فى الجبال بفارس أو اليمن ويعمد نحو بلاد الدار صينى ، وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، فكيف يقطع بطون الأودية واهضام الجبال بالتدويم بالأجواء وبالمضى على السمت لطلب ما لم يره ولم يسمعه ولم يذقه ، وبعد فان شجر الدار صينى ليس بالوطىء ولا بالوثير ولا هو لهذا الطائر بطعام » .

ويواجه « ابن حزم » نظريات أخرى من نظريات الفلك والجغرافيا يقول : زعم قوم أن الفلك والنجوم تعقل وأنها ترى وتسمع ، وهــذه دعوى بلا برهان وصح الحكم بأن النجوم لا تعقل أصــلا ان حركتها أبدا على رتبة واحــدة وهذه صفة الجماد .

ويقول : زعم بعض اليهـود والعـامة أن أنهار النيــل وجيحان ودجلة والفرات تخرج من الجنة وتسقى جميع المعمور وقال ان لهذه الأنهار منابع معروفة فى أرضنا .

وقد رسم ابن حزم نظرية المعـرفة عنده على أسس ثلاثة :

١ ــ شهادة الحواس (اى الاختبار) .

٢ ــ بأول العقل (أى بالضرورة وبالعقل من غير حاجة الى استعمال الحواس الخمس) .

٣ ــ ببرهان راجع من قرب أو من بعد الى شهادة الحواس وأول العقل .

* * *

وأعتقد أن هذه الأسانيد تعطينا الدليل القطعى على سبق الفكر العربى الاسلامى للغرب فى وضع أسس المنهج العلمى على نحو تطبيقى لا نظرى قوامه الاستقراء والقياس والتمثيل .

● قصر البحث العلمى على المشاهدة والتجربة وجمع المشاهدات ونتائج التجربة وربطها وتبويبها .

● تمحيصها وربط تلك الحقائق على النحو الذى يجعلها تصبح قانونا طبيعيا او نظرية علمية .

● استنباط النتائج التى تقضى عليها وبحث صحة تلك النتائج ومطابقتها للواقع .

وقد يتضح هذا المنهج على يد ابن الهيثم (٩٣٥ – ١٠٣٩ م) وسبق به فرنسيس باكون (١٥٦١ – ١٦٢٦) فقد جمع ابن الهيثم بين الاستقراء والقياس وقدم الاستقراء على القياس وحدد الشروط الأساسية فى البحث العلمى وهو طلب الحقيقة دون أن يكون لرأى سابق أو نزعة أو عاطفة أيا كانت دخل فى الأمر [1] .

وعنده ان كل مذهبين مخالفين ، اما أن يكون أحدهما صادقا والآخر كاذبا واما أن يكونا جميعا كاذبين والحق غيرهما جميعا ، واما أن يكونا جميعا يؤديان الى معنى واحد هو « الحقيقة » .

ويرى قدرى طوقان ومصطفى نظيف وغيرهم ان ابن الهيثم لم يسبق « بيكون » فحسب ، ولكنه سما عليه فقد كان أوسع منه أفقا وأعمق تفكيرا .

وابن رشد الذى أخذ عنه الغربيون بمذهب العقل عند

---

(١) قدرى حافظ طوقان : المقتطف ١٩٤٢) .

البحث وعدم الاعتماد على الروايات التقليدية ، تبدو فى فكره وبحثه النزعة الاستقلالية واضحة فبالرغم من انه شارح ارسطو فلقد كان واضحا أن شروحه فى الأغلب كانت تكشف عن شخصيته وآرائه الاستقلالية .

* * *

وقد اعترف بعض العلماء المنصفين بفضل الفكر العربى الاسلامى فى هذا المجال فان الأستاذ بريفولت قد أشار الى ذلك فيما ترجمه « اقبال » فى كتابه تحديد الفكر الدينى فى الاسلام فقال :

ان ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه الينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة ، بل يدين هذا العلم الى الثقافة العربية بأكثر من هذا . انه يدين لها بوجوده نفسه فالعلم القديم لم يكن للعلم فيه وجود ، وعلم النجوم عند اليونان ورياضياتهم كانت علوما أجنبية واستجلبوها من خارج بلادهم واخذوها عن سواهم ولم تتأقلم فى يوم من الأيام ، فتمتزج امتزاجا كليا بالثقافة اليونانية .

وقد نظم اليونان المذاهب وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات ولكن أساليب البحث وجمع المعلومات الايجابية والمناهج التفصيلية للعلم والملاحظة الدقيقة المستمرة والبحث التجريبى ، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليونانى ولم يقارب البحث العلمى نشأته فى العالم القديم

الا فى الاسكندرية فى عهدها الهلينى ، أما ما ندعوه العلم فقد ظهر فى أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة ، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة والملاحظة والمقاييس ولتطور الرياضيات الى صور لم يعرفها اليونان . وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلتها العرب الى العالم الأوربى .

ولم يقف الأستاذ بريفولت عند هذا الحد فى تقويم فضل الفكر العربى الاسلامى ، بل انه ذهب الى ابعد من ذلك حين قرر أن « روجر بيكون » نقل مذهب العرب فى البحث العلمى .

يقول بريفولت فى نفس المصدر : «ان روجر بيكون درس اللغة العربية والعلم العربى والعلوم العربية فى مدرسة أكسفورد على خلفاء معلميه فى الأندلس ، وليس لروجر بيكون ولا لسميه (فرنسيس بيكون) الذى جاء بعده الحق فى أن ينسب اليهما الفضل فى ابتكار المنهج التجريبى ، فلم يكن روجر بيكون الا رسولا من رسل العلم والمنهج الاسلامى الى أوربا المسيحية ، وهو لم يمل قط من التصريح بأنه يعلم معاصريه أن اللغة العربية وعلوم العرب هما الطريق الوحيد لمعرفة الحق » .

وعند بريفولت ان « المناقشات التى دارت حول واضعى المنهج التجريبى هى طرق من التحريف الهائل لأصول الحضارة الأوربية . وقد كان منهج العرب التجريبى

فى عصر بيكون قد انتشر انتشارا واسعا واكب الناس فى لهف على تحصيله فى ربوع أوربا » .

* * *

ومن هنا تنكشف حقيقة الموقف بالنسبة لقضية طال حولها الجدل وحاول كثير من كتاب الغرب وتابعيهم من كتاب العرب انكار فضل الفكر الاسلامى العربى .

وأمامى ما كتبه اسماعيل مظهر عام ١٩٢٦ فى المقتطف حين قرر أن اليونان هم أصحاب الأسلوب اليقينى وناشرو لوائه ، وأن العرب هم أصحاب الأسلوب الغيبى ، وقد رد عليه الأمير مصطفى الشهابى مصححا لموقف العرب ، غير أن هذه القضية قد امتدت واتسع نطاقها وكان أكثر المدافعين عنها هم قدرى حافظ طوقان ، ومصطفى نظيف .

وجملة القول : ان الفكر العربى الاسلامى سبق بيكون وديكارت وأنه طبق منهجه تطبيقا منصفا وأن قوام المنهج العلمى : الاستقراء والقياس والتمثيل قد عرفها وطبقها ابن الهيثم وابن حزم والجاحظ والقاضى عياض والبيرونى وابن سينا .

* * *

ويردد بعض كتاب الغرب ان الفكر العربى الاسلامى لم يكن له الا فضل ترجمة آثار اليونان والرومان فى العلوم ،

دون أن يزيد فيها شيئا حتى أسلمت الى أوربا فى أوائل القرن الخامس عشر .

وهذه قضية ينقصها الدليل لتكون حقيقة بل ان الأدلة كلها تتجمع على نقضها فلم يكن العرب نقلة بل ناقشوا ونقحوا وصححوا وزادوا فيما وصل اليهم وكان لهم رأى .

وقد سجل «روم لاندو» فى كتابه « الاسلام والعرب » فضل العرب على علوم الرياضيات والفلك والجغرافيا والطب والكيمياء والنبات والآداب والفنون والفلسفة والموسيقى والصناعة والزخرفة والعمارة .

ويقول العالم ليبرى (Libri) : لولا العرب لتأخر عصر التجدد فى أوربا لمدة قرون ، فلقد لمع العرب فى كل الميادين العلمية وفى الوقت الذى كان فيه الشعراء والأدباء والفقهاء يقومون بأدوارهم فى نهضة العرب الروحية والنفسية والخلقية كان العلماء فى كل الميادين يقومون بقسطهم فى البحث والنقل والتجويد ولم يدعوا بابا الا طرقوه ، ان لم يكونوا قد فتحوا فى العلم أبوابا جديدة .

ويقول « كاجورى » ان العقل ليدهش عندما يرى ما عمله العرب فى الجبر ، والواقع أن كثيرا من النظريات المتأخرة جاءت على السنة علماء العرب وذكروها فى مصنفاتهم كالتشابه الواضح بين نظرية انشتاين فى الجاذبية وآراء الفارابى فيها .

وأورد الدكتور (هوى لين) أستاذا البيولوجيا فى

جامعة بنسلفانيا الدلائل على أن العرب اكتشفوا القارة الأمريكية قبل كريستوف كولمبث بثلاثة قرون .

وقد أعلن الدكتور نظريته فى مؤتمر الجمعية الشرقية وقال : ان كل طفل يتعلم أن كولمبث هو الذى اكتشف امريكا ١٤٩٢ ولكن قام دليل قوى على أن البحارة العرب قاموا قبل عام ١١٠٠م من الطرف الغربى للعالم الاسلامى فى ميناء الدار البيضاء على التحديد ورسوا بسفنهم فى عدة مواضع على طول الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية .

وقال الدكتور لين الصينى : انه أنفق ثمانية أعوام فى تحقيق هذه الحقيقة .

وقد أشار (چول لاپوم) الى أن العرب عرفوا التشريح ومارسوه ، وكان الأطباء العرب فى القرن العاشر يعلمون تشريح الجثث فى قاعات مدرجة خصصت لذلك فى جامعة صقلية ، واكتشف ابن النفيس الدمشقى المصرى الدورة الدموية ونقلها (هارفى) وعزاها لنفسه .

وقال « وليم أوسلر » : لئن أشعل العرب سراجهم من القناديل اليونانية فانهم ما لبثوا أن أصبحوا جميعا شعلة وهاجة استضاء بنورها أهل الأرض .

وقال العلامة (سارطون) ان بعض الغربيين الذين تعمدوا أن يستخفوا بما أسداه الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئا ما . هذا الرى خطأ لو لم تنقل الينا

كنوز اليونان لتوقف سير المدنية بضعة قرون . ان العرب لم ينسخوا من المصادر اليونانيــة والسنسكريتية نسخا ولكنهم جمعوا بين المصدرين ثم لقحوا الآراء اليونانية بالآراء الهندية واذا لم يكن هذا الذى فعله العرب ابتكارا فليس فى العلم اذن ابتكار على الاطلاق ، فالابتكار العالمى فى الحقيقة انما هو حياكة خيوط المعرفة فى نسيج واحد .

لذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم فى القرون الثلاثة .

وقد قال بهذا الرأى غير سارطون : سمث وكاجورى وپول .

وقال ماكس مايرهــون : ان العــرب أســدوا جليل الخدمات الى بحوث الضــوء ونظرياته ، هــذا العلم الذى يتجلى لنا فيه عظمة الابتكار الاسلامى ولولا العرب لما كان علم المثلثات على ما هو عليه الآن فى وضعه بشكل مستقل عن الفلك .

وقال برنارد لويس : ان أوربا تحمــــل دينا مزدوجا للعرب ، فقد حافظ العرب على التراث الفكرى العلمى الذى خلّفه اليونان وتوسعوا فيه ونقلوه الى أوربا ، ومن العرب نقلت أوربا طريقة جــديدة فى البحث وهى طريقة تضع العقل أولا .

وتنادى بوجوب البحث المستقل والتجربة .

وقال « درابر » من موجب الأسف أن الأدب الأوربى

حاول أن ينسينا واجباتنا العلمية نحو المسلمين فقد حان الوقت الذى ينبغى لنا أن نعرفهم ، ان قلة الاتصاف المبينة على الأحقاد الدينية وعلى الغنجهية القديمة لا تدوم أبد الدهر .

ويقول لامنسى ورامبو : اذا وجب أن يذكر لكل واحد قسطه من العمل لا يسع المنصف أن ينكر قسط العرب منه وكان أعظم من قسط غيرهم ، فلم يكونوا واسطة نقلت الى الشعوب الجاهلة فى افريقيا وآسيا واوربا ، اللاتينية ومعارف الشرق الأدنى والأقصى ، وصناعته واختراعاته ، بل أحسنوا استخدام المواد المبعثرة التى كانوا يلتقطونها من كل مكان . ومن مجموع هذه المواد المختلفة التى صبت فتمازجت تمازجا متجانسا ابدعوا مدنية حية مطبوعة بطابع قرائحهم وعقولهم وهى ذات وحدة خاصة وصفات فائقة .

وقال « روم لاندو » لقد اكتشف المسلمون وجود العدوى وطبيعتها لأمراض الجدرى والكوليرا والطاعون .

وقال هارولد : ان الصليبيين قد تأثروا بالآراء الاسلامية أكثر من تأثرهم بالعادات الاسلامية وقد انشأوا نظام الفروسية الغربية . وقال بريفو : ان العالم الأوربى مدين بوجوده للعرب .

وقال ديلاسى اليرى : نرى كيف اثر الفكر الاسلامى فى الثقافة المسيحية اللاتينية فى القرون الوسطى اذ حول الفلسفة المسيحية الى مسالك جديدة وكاد يذيب اللاهوت

التقليدى فى الكنيسة ، وأدى مباشرة الى النهضة التى كانت الضربة القاضية لثقافة القرون الوسطى .

ويقول « سيديو » ان نفوذ العرب كان باديا فى مختلف أدوار تاريخنا لا فرق فى ذلك بين زمن الغزوات الأولى وزمن الحرب الصليبية ، وان لهجات كثير من الولايات الفرنسية مملوءة بالكلمات العربية ، وان أسماء الأعلام فيها تبدى شكلا عربيا فى كل خطوة كما تبديه اصطلاحاتنا العلمية أيضا .

وقد حافظت اللغة العربية على صفاتها بفضل « القرآن » . وهى أدعى اللغات الى العجب حيث لا تجد حرفا ناقصا عندهم .

ان ما شيد من المدارس فى أرجاء دولتهم كان يوقد مصباح الحضارة فيما بين الشرق الأقصى وهركول ناشرا آثار الفن العربى الرائعة فى كل مكان ، عاملا على تجديد الدم فى عروق العالم الهرم .

ونحن مدينون للعرب فى الحقل العلمى ونعترف مع ذلك بأن مترجمينا كانوا يتلهون بتشويه ما يقتبسونه من التعابير تشويها غريبا الى الغاية .

ويظهر أنه قصد نسيان العرب وانكار ما لهم من تأثير فى الحضارة الحديثة ، فلقد حل الوقت الذى توجه فيه الأفكار الى تاريخ تلك الأمة التى كانت مجهولة الأمر فى زاوية

من آسيا فارتقت الى أعلى مقام فطبق اسمها آفاق الدنيا مدة سبعة قرون .

ان العرب كانوا أساتذة أوربا كلها فى جميع فروع المعرفة .

ويقول لويجى رينالدى : لست أدرى لماذا لا نسمع كلمة اعجاب بالشعب العربى العظيم الذى ترك فى طريق المدنية آثارا عديدة والذى حمل معه أعظم المساعدات وأجل الخدمات للنوع الانسانى ، فلا يبخل على العرب باعطائهم المقام اللائق ، وقد يحزننى ويحزن غيرى ممن ينصفون أن يكون بيننا نحن الأوربيين نفر يقودهم سوء الظن والجهل الى احتقار العرب وحسبانهم من أمة أدنى ، وأن نرى كلمة عربى عندنا تدل على معنى غير معنى التمدن ، فان هذا الشعب لا يزال يحفظ صفاته العجيبة وذكاءه النادر .

لقد قام العرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة المدنية الذى كان قد انطفأ فى جميع بلاد الغرب والشرق حتى القسطنطينية .

ويقول حيدر بامات : ان العرب لم يكونوا فقط أرقى رقيا لا حد له من علماء الغرب مع القرون الوسطى بل كانوا أيضا أرقى من العالم اليونانى فى حقل العلوم ، واليهم يعود شرف ادخالهم الى مباحثهم مناهج الترصد والتجربة التى تتألف منها أسس البحث العلمى الحديث .

وقال ميسو « ليرى » : لو أزيل العرب من التاريخ

لتأخرت النهضة الأوربية فى أوربا بضعة قرون فقد علمت الأمة العربية الغرب بعد أن أيقظته خمسة قرون أو ستة ، وحتى أواخر القرن الثامن عشر كانت مؤلفات ابن سينا لا تزال تناقش فى جامعة منبوليه بفرنسا .

وقال دولامير : اذا عددت بين الاغريق راصدين أو ثلاثة ثم نظرت الى العرب أمكنك أن ترى بينهم عددا كبيرا من الرصاد ، فان مئات من علماء العرب قامت مباحثهم الكيماوية على التجربة . ونشأ عن منهاج العرب التجريبى الخاص وصولهم الى اكتشافات مهمة ، وقد أنجز العرب فى ثلاثة قرون أو أربعة من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق فى زمن طويل .

وقال « أولارد » اننى وقائدى ودليلى هو العقل قد تعلمت شيئا من اساتذتى العرب أن الانسان قد نسج العقل لكى يستخدمه حكما عاليا فى الفصل بين الحق والباطل .

ويقول سيجرد هانك : لشدما يغبن حق العرب حين يكتفى بالقول بأنهم نقلوا التراث القديم الى العالم الغربى بعدما حفظوه من الدمار ، فذلك يعنى التقليل من قيمتهم والسكوت عن الأمور الجوهرية فى عملهم الحضارى وجعلهم مجرد وسطاء ليس غير . والحقيقة أن سائر مناحى الحياة الاقتصادية والاجتماعية والاقتصادية فى الغرب مدموغة بآثارهم .

قال جوستاف لوبون :

كلما تعمق المرء فى دراسة المدنية العربية تجلت له أمور جديدة ، واتسعت أمامه الآفاق ، وثبت له أن القرون الوسطى لم تعرف الأمم القديمة الا بواسطة العرب وأن جامعات الغرب عاشت خمسمائة سنة تكتب للعرب خاصة ، وأن العرب هم الذين مدنوا أوربا فى المادة والعقل والخلق ، وأن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين ، ويرى البعض أنه من العار أن تكون أوربا مدينة فى خروجها من دور الهمجية للعرب ولكن من الصعب أن يحجب مثل هذا العار الوهمى وجه الحقائق .

وقد عد « لكرك » فى تاريخ الطب العربى ثلثمائة كتاب نقلها الغرب من العرب الى اللاتينية وما عرفت القرون الوسطى المدنية الا بعد أن مرت على لسان أشياع محمد .

ولقد تجلى استقلال العرب الفكرى وخيالهم وقوة ابداعهم فيما ابتكروه ، وقد رأينا أنه لم يمض سوى وقت قصير حتى طبعوا على فن العمارة وسائر الفنون وعلى مباحثهم العلمية طابعهم الخاص .

***

وهذه موجزات عن اكتشافات العرب وسبقهم فى العلوم المختلفة :

● عرفوا طبيعة كثير من الأمراض كالجدرى والحصبة واستعملوا الأمصال فى معالجة بعض الأمراض ووصفوا تشريح الجسم الانسانى وصفا دقيقا .

● اخترعوا الساعات الدقاقة والزوالية واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام .

● عرفوا تركيب النار اليونانية واستخرجوا قوة البارود الدافعة واستعملوا الآلات القاصفة . وأتقنوا فن تسقية الفولاذ .

● العرب أول من استخدم البوصلة فى الملاحة واكتشف العرب الابرة المغنطيسية وانتقلت الى أوربا فى القرن الثانى عشر .

● نقلوا القمح الأحمر وفسائل النخيل من اسبانيا وافريقيا الى فرنسا .

● استخرجوا مادة القطران التى يطلى بها قاع السفن .

● عرف فضل العرب فى تحسين نسل الخيل .

● كانوا أول من حاول قياس خط نصف النهار .

● وضع العرب أصول علم الجبر وحساب المثلثات وبسطوا علم الحساب الاغريقى .

● نقل العرب القطن الى الأندلس وأخذوا من الصينيين زراعة قصب السكر واستخراج السكر منه وأدخلوهما الى مصر وصقلية والأندلس .

● علوم العرب فى الجغرافيا والفلك هى صاحبة الفضل الأكبر فى الكشف عن الأمريكتين واتجاه الملاحين الى الرحلة فى عالم المجهول .

● عللت العرب ملوحة البحر وعذوبة المطر واستحالة الحطب فى الاحتراق واستحالة الزيت فى المصباح وصعود الهواء وانحدار الماء لا بالجاذبية والثقل النوعى بل بانجذاب الأجسام بعضها الى بعض (الجاحظ) .

● سجل ابن البيطار ١٤٠٠ عقارا لم يعرف اليونان منها غير ٤٠٠ عقار والألف اكتشفها العرب وحددوا منافعها ومضارها .

● عرف موسى بن شاكر مائة تركيب ميكانيكى .

● علل العرب صعود الماء فى العيون والفوارات وتجمع الماء فى العيون والقنوات واستعملوا السيفون وسموه (السمارة) وعرفوا كثافة الذهب والرصاص .

● بحثوا فى الصوت وحصوله وعللوا حدوث الصدى ، وفى الأوتار واهتزازها ، وعرفوا ما بين طول الوتر وغلظه وتأثره من علاقة .

● عرف العرب خاصة الجذب فى المغناطيس وخاصة اتجاهه وهم أول من استعمل بيت الابرة (البوصلة) فى البحار .

● درس العرب نظرية النشوء والترقى فى مدارسهم وطبقوها على المواد غير العضوية والمعادن .

● الحسن بن الهيثم أول عالم فى البصريات .

● اقتبس العرب الأرقام الهندية وشذبوها ، وأوجدوا لها طريقة مبتكرة وهي الاحصاء العشرى باستعمال الصفر .

- ألف الخوارزمي أول كتاب في الجبر .
- استعمل العرب الرموز في الرياضة فسبقوا الأوربيين الى ذلك ومهدوا للكشف عن اللوغاريتمات وعن التكامل والتفاضل .
- أنشأ العرب المراصد العديدة ووضعوا الأزياج الدقيقة الكبيرة الفائدة وهم أول من عرف الأصول التى تفضى الى الرسم على سطح الكرة وأول من أوجد علميا طول الدرجة من خط نصف النهار ، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها على محورها .
- اخترعوا آلة الاسطرلاب الدقيقة ، وحققوا مواقع كثير من النجوم وحسبوا طول السنة الشمسية وبحثوا فى كلف الشمس قبل الأوربيين ووضعوا جداول دقيقة فى النجوم الثوابت وصوروها فى خرائط .
- نقل العرب أكثر من ثلاثة آلاف كتاب فى الطب من اللاتينية الى العربية .
- ألف أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوى الأندلسى كتابا فى الطب والجراحة فى عشرين جزءا .
- صحح العرب أخطاء بطليموس واظهروا خطأ الرومان القائلين بتسطيح الأرض ورسموا خرائط بلادهم .
- قال أبو الفداء فى جغرافيته المسماة (تقويم البلدان) أن الأرض كروية وانها فى الوسط .
- صنع الادريس كرة فضة للملك روجيه الثانى ملك

صقلية فى وزن ٤٠٠ رطل رومى ، ورسم عليها صورة الأرض ووصف أشكالها .

● أول من وضع أسس الكيمياء « العــرب » وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبلير (البلورة) والتذويب والألغام والتكليس ، وهم الذين استحضروا الكحول والقلى والبورق والزرنيخ والبوتاس والأثمد وزيت الزاج (الحامض الكبريتيك) والزاج الأخضر ، وماء الفضة (الحامض النتريك) وحجر جهنم (نترات الفضة) وملح البارود (نترات البوتاس) والسليمانى ، والراسب الأحمر (اكسيد الزئبق) وروح النشادر وملح النشادر ، وملح الطرطير ، وماء الذهب والبارود .

● أطباء العرب والمسلمين هم أول من فتت الحصى فى المثانة ، وسدوا الشرايين النازفة ، وكتبوا فى الجذام والحصبة والجدرى وعدوى الطاعون واستعملوا المرقد (المخدر) فى العمليات الجراحية .

● الأطباء العرب والمسلمون هم أول من كشف النقاب عن الدورة الدموية ودودة الانكلستوما .

● لم تعرف جامعة لوفان حتى القرن السابع عشر مرجعا للطب والعقاقير أوفى من كتب الرازى وابن سينا وابن الهيثم .

● صحح الأطباء العرب آراء أبقراط وجالينوس فى التشريح ووظائف الأعضاء .

● ألقلويات كلها ـ فى الكيمياء ـ معروفة باسمها العربى الى اليوم .

● ماء الفضة لم يوصف فى كتاب غربى قبـــل كتاب (جابر بن حيان) وملح البارود من تحضير تلميذ العرب روجرز باكون .

● أول من اخترع رقاص الساعة هو أبو الحسن العباسى المشهور بابن يونس .

● الساعة الدقاقة اخترعها العــرب وأهداها هارون الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا [1] .

● الساعة التى وضعها المستنصر العباسى فى مدرسة الطب ببغداد كانت على صورة الفلك الدائر .

● أول مصنع للورق بدأ فى سمرقند عام ٧٥١ ثم فى بغداد فى زمن الرشيد ثم فى دمشق ودميـــاط ومراكش وصقلية واسبانيا ، ولم يحل منتصف القرن الرابع الهجرى الا وتعددت أنواع الورق العربى .

● المرايا والبلّور بدأت فى ســوريا ومنها انتقلت الى البندقية .

● عرف العرب « الصفر » ولم يعرفه الغرب الا فى

---

(١) كانت الهدايا التى أرسلها هارون الرشـــيد الى الامبراطور الرومانى شارلمان موضع دهشة عظيمة وكانت متألفة من فيل عظيم وخيمة مطرزة وروائح عطرية ثمينة وشمعدانين وساعة مائية وقال المؤرخ اجيناردو أن هذه الأشياء كانت ما تزال مجهولة عند الأوربيين .

القرن الثانى عشر عن طريق العرب وقال (اير) ان فكرة الصفر تعتبر من أعظم الهدايا العلمية التى قدمها المسلمون . وكان العرب قد استعملوا الصفر للدلالة على لاشيء ، وفى القرن الثامن الميلادى استعمل العرب الصفر فى الحساب ورسموه على هيئة حلقة ثم شرح الخوارزمى طريقة استعماله فى بحث ترجم فى الربع الأول من القرن ١٢ م .

***

وهؤلاء بعض أعلام الفكر العربى الاسلامى فى الفنون التى برزوا فيها :

جابر بن حيان : أول من استحضر الحامض الكبريتيك بعد تقطيره من الشبة وسماه « زيت الزاج » واستحضر أيضا حامض النتريك وأول من كشف الصودا الكاوية وأول من استحضر ماء الذهب .

الخوارزمى : أول من وضع علم الجبر بشكل مستقل عن الحساب ، وضع هذا العلم فى أواسط القرن التاسع الميلادى وأخذته أوربا عنه فى أواسط القرن الرابع عشر . فقد ترجمت مقالته الى اللاتينية واتخذت اساسا لتدريس الجبر فى عصر النهضة .

الرازى : استكشف ما أسماه « زيت الزاج » وهو حامض الكبريتيك والكحول . كتابه الحادى ترجم الى اللاتينية وظل مرجعا لهم الى منتصف القرن الرابع عشر

قال عنه الدكتور وينسون أنه كان يعالج الأمراض التناسلية كما نعالجها فى أيامنا هذه . واليه ينسب اختراع الفتيلة فى الجراحة .

التبـانى : أطلق عليه بطليموس العرب ووضع من بين العشرين فلكيا المشهورين فى العالم كله .

البيرونى : قال عنه سخو : أعظم عقلية عرفها التاريخ والغربيون مدينون له بمعلوماتهم عن الهند ومآثرها فى العلوم . وقد صاغ نظرية دوران الأرض حول محورها وحول الشمس .

ابن الهيثم : لولاه لما كان علم البصريات . أخذ عنه كيلر معلوماته عن الضوء ولا سيما فيما يتعلق بانكساره فى الجو ، أقام بحثه على الاستقراء والقياس والاعتماد على المشاهدة والتجربة وهو أول من قرر بأن الرؤية تتم ليس بواسطة شعاع تطلقه العين فى اتجاه الجسم المنظور بل بواسطة أشعة تطلقها الأجسام المضيئة الى العين التى نراها بواسطة جسمها الشفاف .

ابن خلدون :

قال عنه مكدونالد : ان مقدمة ابن خلدون هى أساس فلسفة التاريخ وحجر الزاوية فيه وأن أحدا لم ينسج على منوالها قبلها .

أبو الثناء الأصفهانى :

تحدث عن فكرة كشف الأرض الجديدة قبل رحلة كولمبس بنحو قرن ونصف .

الفرغانى :

أول من سبق الى اكتشاف أن الشمس والسيارات ترسم مدارات فى الاتجاه المعاكس للحركة النهارية .

القزوينى :

تناول « النفط » فى كتابه « عجائب المخلوقات » وقال انه يطفو على الماء ومنه أسود ومنه أبيض وقد يتصاعد الأسود بالقرع والانبيق فيصير أبيض ينفع فى أوجاع المفاصل والفالج وبياض العين والماء النازل منها .

الزهراوى :

عرف أكثر من مائتى آلة ومبضع ، وكان عالما فى طب الأسنان ، أول من كتب احصائية صحيحة لأمراض النزيف الدموى .

ابن سينا :

ترجم كتابه القانون فى الطب فى خمس عشرة طبعة الى اللاتينية والعبرية والانجليزية . وقد بحث فى أحد أقسامه العقاقير والأدوية فى سبعمائة وستين نوعا . قال الدكتور روبنستون انه يحتوى على مايزيد على مليون كلمة وقد عالج القرحة الدرنية والفولنج الكبدى والكلوى والتهاب الرئة والجنب والتهاب الدماغ . وقد ظلت مؤلفاته أساسا للمباحث الطبية فى جامعات فرنسا وايطاليا ستة قرون .

الكندى :

نسب اليه ما لا يقل عن ٢٦٥ كتابا مؤلفا فى البصريات

وأصول الموسيقى والتنجيم والكيمياء . وقد سجلت مؤلفاته أن العرب عرفوا الأوزان الغنائية والقياسات الموسيقية قبل أوربا بقرون .

أبو الفداء :

قال ان الأرض كرة تطفو فى مركز الوجود ، وقال ان رجلين لو ابتدآ بالسير واتجه أحدهما شرقا والآخر غربا فانهما يتقابلان ولكن الرجل الذى اتجه شرقا يصل الى مكان اللقاء قبل الآخر بيوم واحد .

على بن عيسى :

صاحب أكبر مؤلف فى طب العيون تنـــاول فى طبيعة العين وكيفية تشريحها وأمراض العيون وقد تنـــاول ١٣٠ مرضا من أمراض العيون ومائة وثلاثة وأربعين دواء كان يستعملها فى علاج هذه الأمراض .

ثابت ابن قرة :

حَسِبَ ارتفاع الشمس الظـــاهر وطول الســـنة الشمسية .

الكاشى :

واضع أساس الكسر العشرى .

ابن يونس :

أول من عرف الرقاص قبـــل غاليليو بسبعة قرون باعتراف سارطون وتايلر وبيكر .

شهادات للفكر العربى الإسلامى

غوستاف لوبون	: حضارة العرب .
سيجرد هانك	: شمس الله تسطع على الغرب . Le Soleil d' Allah Brille Siurl' Occident
لوثروب ستوارد	: حاضر العالم الاسلامى .
اسكندر موند هومبلدت	: الكون الكبير .
حيدر بامات	: مجالى الاسلام .
بريس دافن	: الفن العربى .
لويجى برينالدى	: المقتطف ديسمبر ١٩٢١
هنرى چورچ فارمر	: تاريخ الموسيقى العربية . المقتطف م ١٩٢٩
برنارد لويس	: العرب فى التاريخ
ل. أ. سيديو	: تاريخ العرب العام .
ديلاس أولدى	: الفكر العربى ومكانه فى التاريخ .
روم لاندو	: الاسلام والعرب .
درابـــر	: تاريخ الارتقاء العقلى فى أوربا .
لافيس ورامبو	: التاريخ العام .
الدكتور سارطون	: مقدمة لتاريخ العلم .

بين اللغة العربية واللغة اللاتينية

ووجه الاتهام الى اللغة العربية بالقصور عن مجاراة الفاظ الحضارة وجرى بحث طويل ومناقشات متعددة حول ضرورة ان تتخذ اللغة العربية نفس الطريق الذى اتخذته اللاتينية . وتحدث عدد كبير من مفكرى الغرب من مستشرقين وعلماء عن تطور اللغة العربية فكان من رأيهم تغليب اللهجة فى كل قطر لتصبح لغة اقليمية . كما فعل الأوربيون باللغة اللاتينية حين أوردوها المتحف واقاموا من لهجاتهم لغات .

ولطالما الح هؤلاء الكتاب على هذا المعنى واكثروا من ترديده وانخدع به بعض كتاب العرب غير مقدرين الفارق الكبير بين اللغتين وتطورهما ذلك أن اللغة العربية هى لغة امة واحدة تحمل ثقافة وفكرا ما يزال حيا متفاعلا لم يتوقف أو يتجمد . وأن هذه الأمة تمتد من المغرب الأقصى الى حدود ايران وهى فى هذا الزمن الطويل قد ارتبطت بالتاريخ والتراث والقيم أوثق ارتباط ، وقد أثرت الفكر العربى الاسلامى الذى تضمه ألوف الكتب والمجلدات والمخطوطات المنثورة فى مختلف مكتبات العالم ، وأن هذا الفكر الذى هو قوام حياتنا وثقافتنا وتاريخنا انما يقوم على « القرآن »

الذى هو الزابطة الكبرى ، وأن فى الدعـــوة الى تغليب اللهجات الاقليمية من شأنه أن يقضى على هذا التراث الحى كله ، وأن يفرق هذه الأمة وبذلك يضيع تاريخ متصل امتد أربعة عشر قرنا .

وقد بدأت الحملة على اللغة العربية منذ أواخر القرن الماضى وامتدت على أيدى كتاب ومفكرين أجانب ثم حمل لواءها كتاب من بلادنا ، بدأ هـــذه الحملة فى الأغلب مستر ولكوكس عام ١٨٩٢ فى خطاب ألقاه فى نادى الأزبكية بالقاهرة جعل عنوانه « لم لم توجـد قوة الاختراع لدى المصريين الآن » وأجاب على هذا السؤال بأن السر فى تأخرهم هو « اللغة العربية » وأن المصريين لو اتخذوا لهم لغة «اقليمية» كما فعلت بريطانيا مثلا لاستطاعوا أن يتفوقوا ويخترعوا .

وتابعه القاضى « ويلمور » عام ١٩٠١ بحملة أخرى دعا فيها الى ما أســماه « لغة القاهرة » واقترح كتابتها بالحروف اللاتينية .

وفى المغـــرب وجه المستشرق ماسنيون الدعوة عام ١٩٢٩ الى الكتابة بالحروف اللاتينية ، وقال ان اللغة بذلك تصبح ناشطة قادرة على أن تجارى الزمن ، ودعا العرب فى شمال افريقيا وفى سوريا وكانتا محتلتين بالقوات الفرنسية الى هذا العمـــل ، وتابعه فى الدعوة من بعد المستشرق (م . كولان) حيث دعا الى العامية فى المغرب

ومضى بعض كتابنا الذين كانوا يحملون أمانة الفكر

لأوربا فتابعوا هذه الدعوة « التغريبية » ، فدعا لطفى السيد وسلامة موسى وعبد العزيز فهمى فى مصر ، والخورى مارون غصن فى سوريا وكثير غيرهم الى العامية والحروف اللاتينية.

***

ولقد وجدت الفصحى نصراء من أهلها ومن غير أهلها .

قال مستر جويدى المستشرق الايطالى معلقا على حديث كبير من الكبراء،له فى تغيير أسلوب اللغة القديمة وتتبع الأسلوب العربى فى الكتابة « الحروف اللاتينية » : « أنا على عكس هذا الرأى . أرغب فى أن لا ينسى الكتاب الحاليون العلاقة بالماضى ، ثم لأن فى الماضى مجدا كبيرا وهذه اللغة قد لعبت دورا خطيرا فى التاريخ العالمى » .

أما ارنست رينان وهو الكاتب الفرنسى الذى لم يكن من نصراء الفكر العربى الاسلامى فانه يقف من اللغة العربية موقفا منصفا . فيقول :

ان من أغرب ما وقع فى تاريخ البشر وصعب حل سره انتشار اللغة العربية ، فقد كانت هذه اللغة غير معروفة بادىء ذى بدء . فبدأت فجأة فى غاية الكمال سلسة أى سلاسة ، غنية أى غنى ، كاملة بحيث لم يدخل عليها منذ يومنا هذا أى تعديل مهم ، فليس لها طفولة ولا شيخوخة ، ظهرت لأول أمرها تامة مستحكمة ولم يمض على فتح الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة

أن يترجموا صلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى ، ومن اغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل الى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل ، تلك اللغة التى فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها ، وحسن نظام مبانيها ، وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ، ومن يوم عملت ظهرت لنا فى حلل الكمال الى درجة أنها لم تتغير أى تغيير يذكر ، حتى أنه لم يعرف لها كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة .

ويقول رانكة الفيلسوف الألمانى : ان الثقافة الانسانية تعتمد على لغتين كلاسيكيتين هما العربية واللاتينية . وبينما اشتقت اللغات الغربية من اللاتينية ، فقد نفثت اللغة العربية فى الشرق روحا فنية . ولا يمكن فهم المصنفات الأدبية الفارسية أو التركية بدون العودة الى الكلمات العربية وخاصة أن وحى القرآن الكريم الذى لا يجارى ، يعد بلا مراء أساس العقيدة الانسانية والثقافة البشرية .

ويرى الدكتور المستشرق عبد الكريم جرمانوس أن اللغة العربية سند هام أبقى على روعتها وخلودها هو « الاسلام » ، فلم تنل منها الأجيال المتعاقبة والعصور المتباينة واللهجات المختلفة ، على نقيض ما حدث للغات القديمة المماثلة كاللاتينية حيث انزوت تماما بين جدران المعابد وكادت تنقرض .

وقد كان للاسلام قوة تحويل جارفة أثرت فى الشعوب

التى اعتنقته حديثا ، وكان لأسلوب القرآن الكريم أثر عميق فى خيال هذه الشعوب فاقتبست آلافا من الكلمات العربية وازدانت بها لغاتها الأصلية فازدادت قوة ونماء . ومن هذه اللغات التى تأثرت بها الفارسية والتركية .

والعنصر الثانى الذى أسهم بنصيب ملحوظ فى الابقاء على اللغة العربية هو مرونتها التى لا تبارى ، فالألمانى المعاصر مثلا لا يستطيع فهم كلمة واحدة من اللهجة التى كان يتحدث بها أجداده من ألف عام ، بينما العرب المحدثون يستطيعون فهم لغتهم التى كتبت فى الجاهلية قبل الاسلام .

ولولا تطور اللغة العربية الدائب لما استطاعت الأجيال الجديدة أن تعى لغة أجدادهم ، والمرونة التى تنطوى عليها الضاد لم تنشأ جزافا وانما هى نتيجة حتمية لطبيعة اللغة العربية ، حيث ان ما تتميز به من موسيقية واضحة وقابلية للتزاوج مع اللغات الأجنبية جعل منها لغة حية مرنة متطورة .

وقد بز علماء فقه اللغة العرب زملاءهم العلماء الغربيين ذكاء وبراعة ، وأصبح من البديهيات أن مفكرى الاسلام كانوا أساتذة الأوربيين فى القرون الوسطى فى مبادىء العلوم والطب والفلسفة ، ولكن اتساع أفق علماء اللغة العرب لم ينوه اليه كثيرا ، رغم انهم اكتشفوا منذ الف سنة قواعد كان يجهلها الغربيون .

وقد استطاع « الجاحظ » أن يكشف فى كتابه « البيان

والتبيين » الأسباب الفزيولوجية للتغيرات السريعة فى الاصوات ، اذ لاحظ أن النطق خاضع لتكوين الفم والحنجرة ، ونتيجة ذلك أن الكلمة الواحدة تنطق بطريقة مختلفة حسب اختلاف الشعوب ، كما لاحظ أن ثمة عيوبا طبيعية فى حواس الكلمة . من شأنها أن تؤثر فى النطق ، وان اختلاف الأحوال الجوية يؤدى الى اختلاف فى الكلمات.

وكان « واصل بن عطاء » مؤسس حركة المعتزلة لا يستطيع نطق حرف الراء ، لذلك كان يقوم بابدالها بمرادفات خالية منها كأن يقول ملحد بدلا من كافر ، والحنطة بدلا من البر وهكذا . كما نسب تفخيم الحروف كالقاف والصاد واللام الى تشويه فى الفم أو فساد اللغة .

ولست بحاجة الى الاشادة بمؤلفات الأصمعى وسيبويه والسجستانى وغيرهم للتدليل على أن العلماء العرب قد سبقوا الغرب فى هذا المضمار .

وفى رأيى أن هذه « الطبيعة الذاتية » التى طبعت عليها اللغة العربية جعلتها فى مركز الانفراد والتباين وسط اللغات الأوربية .

ولا شك أن المحافظة على اللغة العربية هى من صميم الدعوة القومية المعاصرة فى البلاد العربية ، فهى أداة الربط التاريخية بين شعوب هذه المنطقة .

واللغة العربية لغة سامية تمتاز بثلاثية الحروف الصوتية ، وبكثرة الحروف الساكنة وباصالة الحروف

المتحركة ، وتطبيق قواعد النحو على الكتابة العربية يرجع الى القرن الثامن الميلادى ، وقد روجعت تلك القواعد بدقة وعناية مع مراعاة طبيعة اللغة العربية ، فأصبح من المتعذر تعديلها أو تبديلها ــ ففى خلال أربعة عشر قرنا أخذ الكتاب والقراء فى الأقطار الكاشفة من ضعاف آلهندوس شرقا الى شواطىء المحيط الأطلسى غربا يتطلعون بأبصارهم الى ذلك الأدب الخاضع لتلك القواعد النحوية والاملائية الدقيقة .

***

وكما أثرت اللغة العربية فى الفارسية والتركية ، فقد أثرت فى اللغات الأوربية وكان أثرها بعيدا فى اللغة الاسبانية، فقد استمرت اللغة العربية ثمانية قرون فى الأندلس أقامت حضارة ضخمة ، وكان من الطبيعى أن تؤثر فى اللغتين الاسبانية والبرتغالية . وقد أحصى العلامتان دوزى وانجلمان هذه الكلمات فى كتاب سمياه (مفردات الكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية) طبع فى لندن ١٨٦٩ ، وقد أجرى الاسبانيون عددا من التصفيات للغة العربية ومع ذلك فلا يزال ١٧ فى المائة من كلماتهم عربيا ، وقد أثرت العربية فى اللغات الفرنسية والانجليزية والألمانية ، وقد حوت اللغة الانجليزية أكثر من ألف كلمة عربية ، وهناك ٢٧٠ كلمة من أصل عربى يستعمل فى اللغة الانجليزية يوميا ،

وقد بدأ تسرب الكلمات العربية الى اللغات الأوربية منذ عام ١١٥٠ .

ويقول الدكتور على مظهر ان من يتتبع الألفاظ العربية التي دخلت على غيرها من اللغات ، يرى أنها لم تترك لغة من لغات أوربا الا ولها فيها أثر ، في الاسبانيـة والبرتغاليـة والفرنسية والانجليزية والغالية القديمة وفى الألمانية واللغات الجرمانية الأصل كالهولندية والاسكندنافية في شمال أوربا ، وفي الروسية والبولندية واللغات الصقلية ، وفى الايطالية وبعض لهجات فرنسا وايطاليا ، كما أن عثور الباحثين فى جهات البلطيق في شمال أوربا على سكة اسلامية عربية هى من آثار تجار المسلمين العرب الذين وصلوا الى تلك الأرجاء يوما من الأيام [١] .

ولطالما كتبت أبحاث عن غنى اللغة العربية ومفاضلتها مع اللغات المختلفة فى كثير من المعـانى ، وقد ألف اليـاس أنطون الياس كتابا باللغة الاسبانية ذكر فيه الكلمات التى هى من أصل عربى قال فيه : « أدى بى البحث الى الحكم بأن العربية أقدم لغة حية » وقد أرجع كثيرا من الكلمات الانجليزية واللاتينية واليونانية وغيرها الى أصلها العربى ، وقد ضم معجم وبستر الانجليزى الذى صدر عام ١٩٣٥ بمراجعة الدكتور فيليب متى (٦٠٠ ألف كلمة) مأخوذة من

---

(١) مجلة المعرفة ـ مايو ١٩٣٣

اللغة العربيــة ، منها ٥٠٠ كلمة من الألفــاظ المستعملة فى الكتابة والأحاديث العــادية ، والنصف الآخر فى الشــئون الفنية .

وقد أكمل هذا البحث معجم (دوزى) ومعجم فيشر الكبير ، وقد أشـــار الدكتور لويجى رينالدى الايطالى الى ان اللغــة العربيــة تركت أثرا كبيرا فى اللغتين الصــقلية والايطالية ، وأنه لا يزال الجزء الأكبر من الكلمات العربية الباقية تفوق الحصر . دخلت اللغة بطريق المدنية لا بطريق الاستعمار .

وهنا يبدو الفارق البعيد بين اللغة العربية كلغة حية وبين اللغة اللاتينية التى اضطرت الى أن تختفى . وجملة الراى فى ذلك أن اللغة اللاتينية ماتت كلغة للشعب بموت الدولة ، وبقيت كلغة للكنيسة والعلماء . أما الشعب فكانت اللغات على لسانه تتكيف بتكيفات مختلفــة حسب الأمكنة والأزمنة والعناصر ، ولم تكن اللاتينية لغته الأصلية وانما كانت لغات أخرى كالصقلية والسكسونية والجرمانية وكلها امتزجت بلغة اليونان فلم تثبت تلك اللهجات الا بتمادى الزمن وتنوع الكتبة وفتح المدارس وتأليف الكتب وهذا هو رأى الأب أنطون صالحانى اليسوعى [1] .

ويمكن أن يضاف الى ذلك أن اللغة « اللاتينية » لم تكن

---

(١) مجلة المشرق م ٢٣ شباط ١٩٢٥

لغة الغرب كله ، وهى لم تستطع التغلب على « اليونانية » لأن اللغة اليونانية ارتبطت بحضارة ارقى من حضارة الرومان ، فلما انشطرت الامبراطورية الى شطرين كانت اليونانية فى الشرق واللاتينية فى الغرب .

هذا فضلا عن أن اللغة اللاتينية كانت لغة ارستقراطية لا يمارسها ولا يحسنها الا النخبة الممتازة ، ولم تتغلغل فى طبقات العوام[1] .

---

(١) ساطع الحصري (آراء فى اللغة والادب) .

بين الفكر العربى الإسلامى

والفلسفة اليونانية

هذه قضية طال الكلام حولها وتوسع ، قضية العلاقة بين الفكر العربى الاسلامى والفلسفة اليونانية ، وقد ظل الظلم والانتقاص والغبن موجها الينا وقتا طويلا وهى قضية ذات شقين :

الشق الأول ــ تأثر الفكر اليونانى والفلسفة اليونانية بالفلسفة المصرية الشرقية القديمة ، وقد حاول الغربيون ان ينكروا هذا الأثر ، وحاول المستشرق جويدى فى محاضرات ألقاها بالقاهرة عام ١٩٢٨ أن ينفى هــذا الأثر حين قال : « ان سفر أعلام اليونان الى الشرق للاستفادة من علومه قول منتحل ، وأن مصر وسائر بلاد الشرق لم يكن لها فضل على العلوم والآداب والثقافات التى تنسب الى اليونان .

الشق الثانى ــ هو أثر الفلسفة اليونانية فى الفكر العربى الاسلامى بعد ترجمة آثار اليونان والرومان ، وفى هذا يبلغ الغبن والانتقاص مداه حين يقرر مثل « أرنست رينان » أن الفلسفة العربية هى الفلسفة اليونانيــة مكتوبة بأحــرف عربية .

ونحن فى كلا الحالين فى موضع بعيد عن الحقيقة .

والواقع يقرر أن اليونانيين أنفسهم اعترفوا فى أكثر من موضع بأنهم تلاميذ المصريين ، وكانت زيارة مصر واجبة على كل مثقف يونانى . والنصوص والأسانيد كلها تشهد بأن اليونان تأثرت بالحضارات الشرقية المختلفة وانها أخذت عن الساميين فى آسيا ، والمصريين فى افريقيا أشياء كثيرة مختلفة .

ومن بين هذه الأشياء التى أخذها اليونان عن الشرق الموسيقى والحساب والهندسة ، وقد عرف البابليون علم الفلك قبل اليونان ، وفى مصر قبل أن يولد سقراط وأفلاطون كانت الحضارة الفرعونية بفنونها وعلومها ، ومنها فن التحنيط القائم على نظرية خلود النفس ، والواقع أن جذور الفلسفة والعلوم والفنون بدأت فى الشرق قبل ظهورها فى بلاد اليونان بمئات السنين .

ومن الثابت ان الفيلسوف الفرعونى الأول هو الذى أثبت خلود النفس قبل أن تولد الأمة اليونانية وأن « سقراط » نادى بنفس النظرية قبل الميلاد بأقل من أربعة قرون .

وبالجملة فان الرومان والاغريق ورثوا حضارة بابل والفراعنة التى سبقتهم بأكثر من الف وخمسمائة سنة ،

وقد ظهرت حروف الهجاء فى مصر حوالى ٣٤٠٠ ق.م. ولم تظهر فى اليونان الا بعد ١٤٠٠ عام .

***

أما أثر الفلسفة اليونانية فى الفكر العربى الاسلامى فلا شك فيه ، ولكن الى أى مدى وصلت ؟ لقد دخلت الفلسفة اليونانية على الفكر العربى الاسلامى بعد قرنين كاملين من ظهور الاسلام وقد اكتملت مقومات هذا الفكر ، ووضحت معالمه واستقرت قوائمه ، وهى قد أضافت اليه شيئا ولكنها لم تصبغه بصبغتها ، وقد كان الفكر العربى الاسلامى ناضجا الى الحد الذى لم يكن يسيرا أن يقبل كل ما يعرض عليه كاملا ، وكان متفتحا الى الحد الذى حال بينه وبين أن يرفض اى فكر أو فلسفة ما دامت لن تؤثر فى جوهره أو تقضى على مقوماته الأساسية .

ولما كان «القرآن» هو أساس الثقافة العربية الاسلامية فقد رفض من الفكر الهلينى التماثيل والصور ، وانحرف عن ترجمة الأدب الاغريقى ، وقد رفضت الالهيات الاسلامية تعدد الآلهة والكلام عن الذات واحترمت كلمة التوحيد .

وقد رفض الفكر العربى الاسلامى رأى أرسطو فى « الله » ، ذلك أن أرسطو جرد الاله من كل شىء ، فهو عنده المحرك الذى لا يتحرك ، وانه مفارق للعالم لا يعنى به

ولا يعلم عنه شيئا ، ولذلك اصطنع الفكر الاسلامى فلسفة خاصة تتلاءم مع التوحيد . وقد بدت الفلسفة الاسلامية فى ثوب الصراحة والعلانية وهو ما يخالف غموض الفلسفة اليونانية التى تقف عند الخاصــة والممتازين ولا تنزل الى مستوى الطبقات الشعبية . ويرى الدكتور الأهوانى ان أول فضل للعرب على فلسفة اليونان هو النزعة الديمقراطية التى أنزلت الفلسفة من السماء الى الأرض على الحقيقة ، ويسرت لكل انســان أن يفكر فيها باحثــا ومفكرا ومؤيدا ومعارضا ، وليس بين فلاسفة الاسلام من أنكر وجود الله او قال بالتعدد مثل فلاسفة اليونان ، وأدلتهم على الوجود والوحدانية متأثرا تأثرا شديدا بالاسلام . فالله عند الكندى هو المدبر الأول ، ويعتمد الكندى فى اثبات وجود الله على البرهان الغائى وفكرة التدبير ، وعند الفارابى أن الله هو مبدع الكل ، ويرى ابن سينا أن الله واجب الوجود .

كما تتميز الفلسفة الاسلامية بأبحاث النبوة والوحى ، والصلة بين الله والعالم .

***

ويتميز الفكر العربى الاسلامى فى هذا المجال بأنه لم يقبل علوم اليونان وثقافتهم بل قبل منها ورفض ، واضاف اليها جديدا كثيرا مضى بها خطوات الى الأمام ، فأصول

القضاء التي جاء بها عمر ، والفن الاسلامي القائم على الزخرفة والعمارة الاسلامية يكشف وجه الخلاف والتميز .

وقد وجد العرب لليونان أخطاء كثيرة ، وصححوا كثيرا من النظريات والمبادىء اليونانية ، ومن أهم ما أصلحوه نظام بطليموس فى الفلك ، وكشف جابر بن حيان والجاحظ كثيرا من أخطاء أرسطو ، وبلغ من نضج ابن سيناء أنه عارض رأى أفلاطون فى النفس .

ويمكن القول بانصاف بأن جانبا من عناصر الفلسفة اليونانية قد امتزجت بالفكر العربى الاسلامى على أساس مقوماته الأصلية فى ظل مفاهيمه التى رسمها القرآن .

ومنذ اليوم الذى اتصلت أسباب الفلسفة والفكر اليونانى بالفكر الاسلامى بدأت معالم الأعمال الجديدة ، فقد استطاع العرب أن يوحدوا أشكال الأرقام الهندية ، ووضع أبو النصر الفارابى أصول علم الموسيقى وسمى المعلم الثانى لأنه وضع التعاليم الصوتية ، كما وضع أرسطو المنطق فلقب بالمعلم الأول . وبدأ فضل الفكر العربى الاسلامى على علوم الفلك والرياضة والنبات والحيوان والكيمياء ، وكان أبرز مفهوم للفكر العربى الاسلامى هو قدرته على الجمع بين الدين والفلسفة والحكمة والعلم .

ففى مجال النجوم كانت معارف اليونان منقولة من المصريين والبابليين ، وهى فى الأغلب خرافات ، وقد

استطاع الفكر العربى الاسلامى أن يحيل هذه المعارف الى علم صحيح خالص من الخرافات .

وكذلك فضله فى مجال الجبر الذى أخذه من اليونان فى درجة أولية فعمقه ورفعه درجات .

وفى مجال الكيمياء أخذ العرب من اليونان محاولات تحويل العناصر الخسيسة الى عناصر شريفة ، ويشهد العلماء المنصفون بأن الفكر العربى الاسلامى هو الذى وضع أسس المختبرات العلمية للكيمياء .

واستعمل العرب الأرقام الحسابية بما فيها « الصفر » وأمكنهم بناء المعادلات البسيطة والمركبة .

كما عنى العرب بالعلوم التجريبية وتوسعوا فيها على نحو جعلهم يراجعون فلاسفة اليونان ويكشفون عن أخطاء ارسطو .

ويرى الدكتور عمر فروح أن العرب قد قلبوا العلم اليونانى والفلسفة اليونانية فى بعض وجوههما رأسا على عقب ، ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوى أن روح الحضارة الاسلامية متباين أشد التباين مع روح الحضارة اليونانية .

***

وليس من شك فى أن الفكر العربى الاسلامى قد حفظ الفلسفات القديمة وخصوصا اليونانية من الضياع ، ذلك بأن المسيحية عندما غزت بلاد اليونان خشيت أثر الفلسفة على

الدين الجديد فمنعت تدريسها ، بل دفنت كتبها فى دهاليز فى باطن الأرض حتى استطاع المأمون عام ٢٠٤ هـ ـ ٨١٩ م الظفر بكثير من هذه الكتب وقد أصابها التلف .

ولقد بلغ هذا الحفظ مداه ، اذ كان اليونان فى العصر الحديث لا يعرفون شيئا عن اللغة القديمة ، ولم يكن فى استطاعتهم ترجمتها الا من كتب العرب ، فقد انحسرت العلوم القديمة اليونانية والرومانية منذ القرن الميلادى الثالث .

ومن هذه الأسانيد والدلائل يبدو قول رينان بعيدا كل البعد عن الحقيقة ، فان الفكر العربى الاسلامى حفظ هذا التراث ثم ترجمه وحققه ونقده ، وأخذ منه وانتقى ثم اضاف اليه اضافات واسعة ، وكانت معظم هذه العلوم فى طورها البدائى فأنضجها وجعل منها علوما مستكملة .

أما فى مجال الفلسفة بالذات فان ما وصل اليه ابن سينا وابن رشد وابن ماجة والغزالى وابن طفيل ، هو فكر عربى اسلامى له استقلاله وقوته واتساع آفاقه مما حمل فلاسفة أوربا الى التأثر به ، فقد تأثر ألبرت الكبير ١١٩٣م بابن سينا ١٠٣٧م كما تأثر به القديس توما الاكوينى ١٢١٤ م ، وكذلك تأثر به متى الاكواسبارطى ١٣٠٢ م ـ وديترش الفريبورجى ١٣١٠ م .

أما ابن رشد ١١٩٨م فقد تأثر به الفكر الغربى تأثرا

بعيــد المدى ، ولم تكن شروحه لكتب ارســطو الا وسيلة لابراز آرائه الاستقلالية .

والأثر الضخم البعيــد المدى لفلســفة ابن رشــد فى الفلسفة الأوربية هو مبدأ حرية الفكر وتحكيم العقل على اساس المشاهدة والتجربة ، فقد كان لهذه النظرية الاسلامية أساســا أثرها العنيف فى تعــاليم الكنيسة ، مما أحــدث اضطرابا بعيد المدى حمــل الكنيسة على تحريم تعليم أو قراءة آراء ابن رشد وصدر الأمر بحرق كتبه .

وكان للغزالى ١١١١م بنظريته فى اخضاع العقل للدين والفلسفة وللفقه أثره فى الفكر الغربى ، وكذلك ابن ماجة ١١٣٦م الذى بنى التفـكير الفلســفى على الرياضــيات والطبيعيات وفصل الدين والعقل وأخــذ بالعقل وحده . وجاء بعده ابن طفيل ١١٨٥م صاحب رسالة حى بن يقظان التى تبحث فى نشــأة الانسان الطبيعية وفى تطور العقــل الانسانى تطورا طبيعيا حتى بلغ أعلى مراتب المعرفة .

وقد تأثر بابن طفيل : (١) بلتاسار غرانسيان فى قصة أندريتو ١٦٥٠م ، (٢) روسو فى كتاب اميل ، (٣) سبينوزا ، (٤) قصة روبنسن كروزو .

***

وفى ظل هذه الحقائق تسقط الادعاءات التى تحاول أن تجعل من الفكر العربى الاســلامى صــورة من الفلســفة

اليونانية مكتوبة بأحـــرف عربية على حـــد قول رينـــان ، ومتابعة الكثير من كتاب العرب والمسلمين له فى هذا الرأى .

وقد جرت مساجلات متعـــددة فى هذا الصـــدد بين الدكتور طه حسين وزكى مبارك ، وكان معروفا أن نزعة تمجيـــد اليونان وانكار فضل العرب هى جـــزء من مخطط التغريب والغزو الثقافى للفكر العربى الاسلامى .

والعبرة هنا انه اذا كان الفكر الغربى المعاصر يقرر بما لا يدع مجالا للشك أن الفكر اليونانى الرومانى هو أساس له ، فكيف يمكن انكار أن الفكر العربى الاسلامى ليس أساسا لفكرنا العربى المعاصر ؟ وكيف تجرى المحاولات للتحرر من قيده أو اتهامه أو ازدرائه والسخرية منه بينما يحمل كل هذه الآثار الايجابية المتحررة ؟

بين الموسيقى العربية والموسيقى الغربية

انكر أغلب الباحثين الغربيين فضل الفكر العربى الاسلامى على الموسيقى والدور الذى لعبه فى ابلاغها المرتبة التى بلغتها فى القرون الوسطى ومهدت لظهور الموسيقى الغربية منفصلة عنها . وقد كان الرأى القائل بانكار فضل العرب هو السائد الى وقت قريب وهدفه محاولة انتقاص الفكر العربى الاسلامى فى مجال له اثره البعيد فى تقدير قيمة الشعوب وحضارتها وتمدنها .

غير أن بعض المنصفين من العلماء قد اعترفوا أخيرا بفضل العرب على الموسيقى وايصالها الدرجة العالمية التى عرفت بها ، ومن ابرز هؤلاء الباحثين الدكتور أدموند كورايا لويس والدكتور هنرى فارمر والأب كولنجات .

أما الدكتور هنرى فارمر فقد أحرز عام ١٩١٤ اجازة الدكتوراه من جامعة جلاسجو ببحثه عن تاريخ الموسيقى العربية .

ورأيه انه اذا كان من الشائع المسلم به ان أوربا مدينة للشرق بأنواع كثيرة من آلاتها الموسيقية ، فانه يذهب الى أبعد من ذلك حين يقرر ان الشرق الاسلامى اثر تأثيرا عميقا في نظرية الموسيقي الأوربية ؛ وإن معظم الكتب المؤلفة

باللاتينية فى العصور الوسطى قد وضع كتابها نصوصهم وآراءهم على أساس النصوص العربية .

وقد اعترف فارمر بأن علماء العرب لم يأخذوا بآراء من سبقوهم الا بعد أن تثبتوا منها علميا ، وأن ابن سينا والفارابى وغيرهما من علماء المسلمين قد زادوا على الموسيقى اليونانية وأدخلوا تحسينات واضحة ، وقال ان كتب الفارابى لا تقل عن الكتب اليونانية الموسيقية ، وأثبت أن العرب أجادوا فى بحوث التموجات الكرية للصوت ، وأن « زرياب » العربى زاد وترا خامسا بعد هجرته الى الأندلس وكان للعود اربعة أوتار على الصفة القديمة ، وأن العرب أضافوا آلات جديدة ، فقد ابتكر « الفارابى » الآلة المعروفة بالقانون ، وهو أول من ركبها هذا التركيب الذى لا تزال عليه حتى الآن ، وهو الذى اصطنع آلة مؤلفة من عيدان يركبها ويضرب عليها نغما ، ثم يعيد تركيبها فيضرب عليها نغما آخر ، وتختلف أنغامها مرارا باختلاف تركيبها .

وأشار الى ان للعرب مؤلفات فى الموسيقى بلغوا فيها الذروة ، وكانت ولا تزال من المصادر المفيدة جدا فى تاريخ الموسيقى وتطورها ، واعتبر « مروج الذهب » للمسعودى و « الأغانى » للأصفهانى من أكثر الكتب بحثا وكتابة عن اشتغال المسلمين والعرب بالموسيقى . ويرجح فارمر أن الكندى هو أول من كتب نظرية الموسيقى ، وأشار الى كتاب

الايقاعات للفارابى ، وكتاب الموسيقى لثابت بن قرة ، ورسالة فى النغم لابن سينا وله رسالة الفن الثامن فى كتاب الشفاء .

وقد ترجم فارمر عددا من المؤلفات العربية فى الموسيقى من بينها مؤلف مغربى قديم ، وقد طبع كتابه عن الموسيقى العربية عام ١٩٢٩ وقدم الى مصر حيث حضر مؤتمر الموسيقى العربية عام ١٩٣٢

● أما الدكتور ادموند [1] وكورايالوبس فقد كشف عن حقيقة آمن بها ودافع عنها فى عدد من مؤلفاته ، وهى أن الموسيقى العربية هى أم الموسيقى الاسبانية وان اسبانيا هى أم الموسيقى العالمية وكفى .

● واعلن المستشرق خوليان ويبارا أن موسيقى القرون الوسطى ترجع الى أصل عربى وقال : اذا نحن احتجنا الى البحث فى الموسيقى الكلاسيك Classique لجأنا الى الموسيقى العربية واتخذناها سندا .

وقد أقام الشواهد وقدم الأدلة على ما ذهب اليه فى كتابيه :

La musica de Las Conligas.

La musica Andaluza.

وعنده أن الموسيقى قديمة العهد وقد رافقت النشوء الانسانى لأنها مظهر من مظاهر الحالات النفسية ، وقبل

---

(١) المقتطف (نوفمبر ١٩٢٨) ترجمة عقل الجر .

دخول العرب اسبانيا لم تكن هناك سوى الموسيقى المدعوة (Ficta) وهى مجموعة الحان كنيسية مأخوذة من اليونان . وكان القسس يحرصون عليها جد الحرص ، فلما جاء العرب وازدهرت حضارتهم تموجت أنغام الزجل والحجاز فى أفق اسبانيا ، ولم تلبث أن اتصلت بهـــا الموسيقى الشعبية واكتسبت منها روحا جديدة ، فنشأت من ذلك الموسيقى الاسبانية ونحن ندعوها الموسيقى العربية ، ويقـول : ان الموسيقى الغربية مدينة بسلمها الى مغن بالأندلس اسمه عربى (Orakia) وهو مغن أندلسى كان يتغنى بأزجال يكثر فيها من كلمة (قلبى) ولو قيست مقـــاطع هذه الأزجال لكادت تكون :

دور ره مى فا سو لا سى

ولم تكن للموسيقى العربية رسوم خطية (Notes) ولكنها كانت ذات روابط وضوابط ، وقد كانت عند العرب علما رياضيا ، كما هى اليوم عندنا . وقد أفاض « الفارابى » العلامة العربى المشهور فى شرح قواعدها ، وعنـــه اخذ المشتغلون بالموسيقى الغربية ، ولو كانت الموسيقى العربية خلوا من النظام الفنى لما استطاعت أن تخلف لأوربا هـــذه الموسيقى التى تتمتع بها الآن .

وقال (ادموندو كورايا لوبس) ان الموسيقى العربية سبع مراتب ولكل مرتبة سبع درجات فمثلا :

الأولى : يكاه . غـيران . عراق . وست . دوكاه . سيكاه . جهاركاه .

الثانية : برح النوى . الحسينى . الأوج . الماهور . المحير . البرزك . الماهوران .

ثم تساءل : ماذا أخذناه من هذه الأوضاع ؟

وأجاب : اقتبسنا كل قواعدها على وجه التقريب . ونعرف بها (Gammes) مقاسات الأبعـــاد بين كل برج وضبطها ، وعدد الاهتزازات ، وتقسيم الألحان وافتراقها ورجوعها بحيث ترى أن كل لحن ينتهى فى برجه ، ثم قلب للحن والقرار .

زد على ذلك أن التقسيمات التى نوعها الفارابى ووضع لها أسماء منها : النجاح الأعظم . الصياح الأعظم . الكمال الأعظم . نجدها فى الموسيقى الغربية واتصال المراتب بعضها ببعض فى الجواب والقرار ، وعنده أن الموسيقى العربية هى أوسع وأغنى من الموسيقى الغربية ، لولا أن لها ميزة اجتماع الألحان الكثيرة فى وقت واحد . فالموسيقى العربية هى الطف روحا وأشد استثارة للشعور النفسى ، وأؤكد لك انها بلغت فى عهدى خلفاء بغـداد وازدهار الأندلس أقصى حـــدود الابداع ، فقد كان كبار المغنين يضحكون الناس ويبكونهم فجأة ، وكانت الآلات تجيب ــ بين أيدى العازفين ــ الى مثل هذا التحول الغريب ، بل قام بين أولئك المغنين من كان

يميز بين مئات الأوتار وعشرات العازفات نغما نشازا فيقول يا فلانة أصلحى الوتر الفلانى من عودك .

***

وأشار الأب كولنجات أستاذ الموسيقى الشرقية فى آسيا فى محاضرة له بالجمعية الجغرافية بالقاهرة (مايو ١٩١٥) الى أن الموسيقى الافرنجية افترقت عن الموسيقى العربية فى القرن الحادى عشر فاتجهت الموسيقى العربية فى طريق الشجو واتجهت الموسيقى الافرنجية فى طريق المجانسة .

وفى كتاب جديد لدوجلاس مور أستاذ الموسيقى فى جامعة كولومبيا (من الأنشودة الى الموسيقى العصرية) أورد عن فارمر أن العرب سبقوا الأوربيين الى نوع من الهرمونية يسمونه (التركيب) ويعنون به توقيع النغمة الواحدة من عدة طبقات فى وقت واحد وهو غير الهرمونية كما تفهم اليوم ، كما أشار الى أن أبناء أوربا تعلموا الأنغام على أساتذة من العرب ، ونقلوا أسماء بعض الآلات بألفاظها العربية وبقى بعضها الى اليوم .

***

وقد جرت مساجلات عديدة حول التفاضل بين الموسيقى العربية والغربية ، واتهمت الموسيقى العربية بالضعف الفنى والاضطراب والقصور ، وقد واجه كثير من الباحثين هذه الحملة المغرضة التى هى احدى حملات التغريب والغزو الثقافى .

وجملة الحقـائق فى التفاضل بين الموسيقى العربيـة والموسيقى الغربية[1] هى :

اولا ــ الموسيقى العربية تجرى فى سبع نغمات أساسية (هى الوان الطيف) يتفرع منها ما يزيد عن السبعين نغمة ، بينما الموسيقى الغربية تسجن الصوت فى مقام ونصف مقام اعلى وأدنى لا يستوعب ربع الصوت وثمنه بل و$\frac{1}{36}$ منه . ومن هنا يظهر أيهما أصدق تعبيرا للعاطفة وأدق تصـويرا للمشاعر .

ثانيا ــ الموسيقى الغربية رست على الطباق والمطاوعة ، وهى بهذا تكبت النبرات الدقيقة وتكتفى بنغمات معدودة . أما الموسيقى العربية فان كان ينقصها الطباق لعدم ملاءمته لحريتها فهى لا تزال أغنى بأوزانها ونغماتها من الموسيقى الغربية الغنية بالصخب الفقيرة بالتنوع .

ثالثا ــ الطباق ليس من روح الطبيعة ، بل من وضـع فنانى الغرب الذين لم يهتـدوا الى الوحدة المليئة بالتنوع فاخترعوا موسيقى مبنية على المطاوعة .

رابعا ــ الفن الغربى على ما بذل فيه من جهود لا يرتكز على أساس من الموسيقى الطبيعية التى تتجلى فى الانشاد العربى المنفرد .

---

(١) فيلكس فارس : الرسالة م ١٩٣٨

أوليات الفكر العربى الإسلامى

وفى عدد من الأعمال الكبرى سبق « الفكر العربى الاسلامى » الى الابداع وحاول الغرب انكار هذا السبق والادعاء بأنه هو الذى سبق اليها . غير أن الحقيقة لم تلبث أن ظهرت سافرة واضحة . هذه الأعمال هى تأثر دانتى فى قصته الكوميديا الالهية برسالة الغفران التى كتبها أبو العلاء المعرى . وتأثر آدم سميث فى رأيه عن قوانين الاجتماع بنظرية ابن خلدون فى مقدمته . سبق الفكر العربى الاسلامى الى نظرية « أصل الأنواع » وتأثر داروين بها فى رأيه عنها . كما سبق العلامة الطرطوشى الوزير ميكافيلى فى أبحاثه التى أوردها كتابه الأمير فى كتاب الطرطوشى سراج الملوك . وكان للفكر العربى سبقه فى كتابات المكفوفين التى عرفت فى العصر الحديث وكان للعرب أولية فيها .

أما « دانتى » فقد تأكد أنه تأثر بالثقافة الاسلامية عامة وأنه مدين فيما كتبه فى قصته الكوميديا الالهية بأثرين من آثار الفكر الاسلامى العربى وهما رسالة الغفران وكتب محيى الدين العربى فى كتابه الفتوحات المكية . وأن سورة الأعراف فى القرآن قد أمدته فى تفاصيلها بفكرة جهنم والمطهر والصراط والمحشر .

وكان الشاعر الفلورنسى « دانتى » الذى زار البابا فى
روما كسفير لبلدته فلورنسا تلميذا وصديقا للكاتب برينتو
لاتين (Brunetto Lattine) وكان هذا الأخير قد ألف
كتابا أعلن فيه أن تقسيم الفلسفة الأوربية منـــقول عن
ابن سينا ، وقد كان (برينتو) سفيرا عن فلورنسا عام ١٢٦٠
الى طليطلة حيث شهد هناك مدرسة الترجمة التى كانت
تقوم بترجمة كتب العرب الى اللاتينية ، وكان كثير من نبلاء
الطليان قد قصدوا الى اشبيلية فى هذه الفترة واحتـلوا
شارعا فيها .

وقد ثبت أن كتابا عربيا يدور حول فلسفة الحشر العربية
الاسلامية قد ترجم الى اللاتينية والفرنسية ، كان معروفا
فى ايطاليا فى القرن الرابع عشر ، ثم وضع الكتاب فى بلاط
الفونسو بمدينة اشبيلية ، ونقل الى اللغة القشتالية قبـل
عام ١٢٦٤ بزمن طـــويل ، ويؤكد المستشرق الايطـــالى
فرانسيسكو غابرينى أن الكاتب الايطالى (بونا فنتيورا) قد
أخذ نص الترجمتين الفرنسية واللاتينية الموازيتين له ،
ومخطوطة احـــداهما لا تزال محفوظة فى اكسفورد ببريطانيا
ويؤكد المستشرق الايطالى فى بحث له [1] بتأكيد ارتباط دانتى
بالفلسفة الاسلامية وأنه قرأ ابن عربى وأبى العلاء وعنهما

(١) ترجم فى مجلة المجتمع العلمى العربى م ٣٣ (١٩٥٨)

تأثر فى رسم صورة الحشر فجاءت مشابهة لفلسفة الحشر الاسلامية .

وقد أعلن (الأب آسين بلاسيوس)[1] أستاذ اللغة العربية فى جامعة مدريد عام ١٩٢٦ فى كتابه (الاســلام والرواية الالهية) أن دانتى الشاعر الفلورنسى قد حاكى التقــاليد الاسلامية فى الكوميديا الالهيــة (The Dinine Comedy) وقال ان الشاعر مدين فى كثير مما كتبه الى الثقافة الإسلامية عامة والتقاليد الصوفية خاصة .

وأورد ما كتبه الأستاذ بلاشت (Blachet) فى مقاله « المصادر الشرقية للرواية الالهية » فى قوله « ان الاسلام كان من المؤثرات التى عملت على انتاج فكرة هذه الرواية » .

وقال الأب اســين : انه تأكد من أثر قصتى المعراج والاسراء فى (الكوميديا الالهية) وأشار الى أن محيى الدين ابن العــربى تناول موضــوع الاسراء والمعراج فى كتابه «الفتوحات المكية» قبل مولد دانتى بخمس وعشرين سنة .

وأن ما جاء به دانتى مشابه الى درجة عظيمة لما سجله ابن العربى فى كتابه الفتوحات وأن سورة الأعراف القرآنية فى تفاصيلها مهدت السبيل الى فكرة دانتى .

وكذب الأب اســين ما قيل من أن الكوميديا الالهية منقولة من القصص النصرانية التى كانت شائعة فى القرون

---

(١) المقتطف : م يونيو ١٩٢٨

الوسطى وأثبت اتصالها بالاسلام ، وقال اسين « ان الأقاصيص التى ذاعت فى ايطاليا وألمانيا وفرنسا واسكندنافيا وايرلندا مثل رحلة القديس برلندان وأحلام القديس لويس والقديس متريح مستقاة من التقاليد الاسلامية ، وانها وصلت الى أوربا عن طريق الحجاج والتجار والمحاربين والمبشرين والرحالين وأسرى الحرب والعلماء والمدارس .

وقال ان التقاليد النصرانية التى عدها بعضهم من أوليات (الكوميديا الالهية) لم تبرز الى الوجود الا بعد انصرام القرن العاشر بينما الأحاديث والشروح قد وجدت قبل هذا التاريخ ، وقال : ان قصة المعراج وغيرها من التقاليد الاسلامية كانت شائعة فى الأندلس .

وأكد العلامة « اسين » انجذاب « دانتى » نحو الثقافة الاسلامية ، وقال انه عاش فى وسط اسلامى فى ثقافته وأنه وعى معارف عصره ولم تكن الا اسلامية ، وأشار الى أنه كان له المام بالعربية أو العبرية .

وأضاف رأى الأستاذ نردى فى هذا المجال الذى أشار الى أن وصف دانتى للحياة الأخرى يدل على أن فى اتجاه أفكاره نحوا من الروح الاسلامية . وما كان له من علاقة بابن العربى يرجع الى أنه كان من اتباع المذهب الاشراقى الذى أوجده شيخ ابن العربى : الفيلسوف ابن ميسرة القرطبى الأندلسى . وقال نردى : ان الله عند كل من ابن العربى ودانتى « نور » وكل منهما يستعمل لفظة : الانعكاس

والاشعاع ، والبروق النورانية ، « وتجلى » هذا النور .

وخلص نردى من ذلك الى أن دانتى نسج على منوال ابن العـــربى فى خواص الأحكام الموجودة فى (الفتوحات المكية) وحاكاه فى تفسير الأحلام تفسيرا صوفيا مما ذكره ابن العربى فى كتابه (ترجمان الأشواق) .

وقال ان هناك ثلاثة عوامل تؤكد تأثر دانتى بالمعرى وابن عربى :

أولا ــ سبق الآداب الاسلامية لغيرها فى أوربا وبالتالى لدانتى الى أن وجدت قبل أن توجد تلك التقاليد او هذه الرواية .

ثانيا ــ « المشـــابهة » بين هــذه الآداب وما جاء به « دانتى » .

ثالثا ــ ثبوت انتقال هذه الأفكار الى الغرب .

ثم قال : اذن فنظرية أصل الرواية الاسلامية أمر لا يمكن جحــده .

***

وسبق ابن خلدون فلاسفة الغرب فى وضع أسس علمى الاجتماع والاقتصاد السياسى . فلا شك مطلقا فى السبق التاريخى بين ابن خلدون ومن كتبوا من مفكرى أوربا عن الفلسفة التاريخية أو الاجتماعية أمثـــال آدم سميث أو أوغست كنت وبين آدم سميث وابن خلدون أربعة قرون

كاملة . فقد ظهر ابن خلدون بنظريته التى ضمنها كتابه « المقدمة » فى القرن الرابع عشر ، بينما ظهر آدم سميث فى القرن الثامن عشر .

وقد درس ابن خلدون الظواهر الاجتماعية على أساس علمى وقرر أن الظـــواهر العمرانية فى تزاحمها وتواليها تحكمها قوانين ، وكانت وسيلته فى الدراسة : الاستقراء والقياس . وفى هذه المقدمة بدأت بذور الفكر الاقتصادى مما عده الباحثون من بعد نقطة بدء للمدرسة العلمية فى الاقتصاد . وقد أكد المنصفون من الباحثين بأن آراءه لم تكن مجرد جمع لمعارف منوعة ، ولكنها جاءت كعمل منظم ومرتب ينطبـــق عليـــه لفظ العلم فى معنـــاه الدقيق . وأن البحوث الحديثـــة وان كانت تســـتند الى وســـائل بحث أنجح الا أنها فى شكلها وموضوعها مماثلة لبحوثه .

وقال الأستاذ فيليب : ان ما ألفه ابن خلدون عظيم الشأن كبير القيمة بحيث سيحفظ اسمه فى سجل الخالدين بين الأجيال المتعاقبة .

وقد شهد لابن خلدون عشرات من الأعلام فى مقدمتهم (ايف لاكوست) فى كتابه ابن خلدون [1] واضع علم ومقرر استقلال .

---

(1) N,schmidt, Jbn Kbatdoan, His lorani Sociologist an Philosopher.

ترجم هذا الكتاب زهير فتح الله وطبع فى لبنان .

فهو عند روبرت فلينت المؤرخ الانجليزى : واضع نظريات فى التاريخ يعد منقطع النظير فى كل زمان ومكان . وهو عند جوميلوفيتس فيلسوف الاجتماع الألمانى مفكر عصرى بكل معنى الكلمة ، درس الحوادث الاجتماعية بعقل هادىء رزين وأبدى آراء عميقة جدا ، ليس قبل « كونت » فحسب بل قبل « فيكو » أيضا والحقيقة أن ما كتبه ابن خلدون هو ما نسميه اليوم « علم الاجتماع » .

والمعروف أن فيكو الفيلسوف الايطالى كتب بحثه « العلم الجديد La Science Nouvelle عام ١٧٢٥ م بينما كتب ابن خلدون مقدمته عام ١٣٧٧ م سابقا اياه بثلاثمائة وخمسين عاما . أما بحث أوغوست كونت (السوسيولوجى) فقد كتبه خلال الربع الثانى من القرن التاسع عشر أى بعده بأربعة قرون ونصف .

ويرى « استفانو كولوزيو » الايطالى ان مبدأ « الحتمية الاجتماعية » يعود الفخر فى تقريره الى ابن خلدون قبل رجال الفلسفة الاثباتية وعلماء النفس بقرون عديدة « وأن هذا المؤرخ العربى العظيم اكتشف مبادىء العدالة الاجتماعية والاقتصاد السياسى قبل تونسيد وان وماركس وباكونين بخمسة قرون . وأن ما يعزوه من شأن كبير الى دور العمل والأجرة والملكية يجعله اماما لاقتصاديى هذا العصر » .

أما « فارد » عالم الاجتماع الأمريكى فيسجل لابن خلدون سبقه مونتسيكو وفيكو « كانوا يظنون أن أول من

قال بمبدأ الحتمية فى الحياة الاجتماعية هو مونتسيكو أو فيكو فى حين أن ابن خلدون قال بذلك ، واظهر تبعية المجتمعات لقوانين ثابتة قبل هؤلاء فى القرن الرابع عشر » .

وسجل « أرنولد توينبى » الفيلسوف المؤرخ البريطانى المعاصر « أن ابن خلدون فى المقدمة التى كتبها لتاريخه العام قد أدرك وأنشأ « فلسفة التاريخ » وهى بلا شك أعظم عمل من نوعه أبدعه أى عقل بشرى فى أى زمان أو مكان » .

ويرى مارتون فى كتابه مدخل لتاريخ العلم « انه لمن المدهش أن يكون ابن خلدون قد توصل فى تفكيره الى اصطناع ما يسمى اليوم بطريقة البحث التاريخى » .

***

وقد أعلن « دارون » المتوفى ١٨٩٥ نظريتى أصل الأنواع والتطور وأثارت نظريته فى تنازع البقاء وبقاء الأصلح بالانتخاب الطبيعى ضجة . وعنده أن نشأة النبات والحيوان وترقيهما ترجع فى الغالب الى الكفاح والتنازع بين الأنواع المختلفة من كل فئة ، حتى يبقى أصلحها وأقواها ويفنى ضعفها . وقد طبق نظريته على الفيران ، فبعض الفيران اسرع جريا من البعض وبعضها أقوى فى حاسة السمع وبعضها الآخر أشد أسنانا ، وبعض هذه الفوارق تنتقل من جيل الى جيل بالوراثة ، وبما أنه ليس فى الأرض متسع لكل الفيران التى تولد فان الضعيف يفنى ولا يبقى الا القوى .

فالفيران التى لا تستطيع سرعة الهرب من عدوها والتى لا تحس سمع صوت مهاجمها ، والتى ليس فى أسنانها من القوة ما يضمن لها حسن الغذاء وقوة الدفاع ، كل هذه تفنى فى معركة الكفاح للحياة أو تنازع البقاء وتبقى القوية التى تفوز فى تلك المعركة . ومحور نظرية دارون هو التغاير والوراثة وتنازع البقاء والانتخاب الطبيعى ، وعنده أن المغايرة تطرأ على النوع فى حدود معينة ، ففى أعضاء الفصيلة الواحدة تغاير ينتقل بالوراثة وبعضه لا ينتقل . وهذا يوضح لنا كيف أن بعض أعضاء الفصيلة يبقى وبعضها يفنى .

***

وقد سبق دارون الى هذه الآراء ابن مسكويه ، واخوان الصفا فى رسائلهم ، وابن خلدون .

فقد ذكر ابن مسكويه فى كتبه أن النبات أسبق فى الوجود من الحيوان ، وقسم النبات الى ثلاث مراتب منها ما نجم من الأرض ولم يحفظ نوعه بجذر .

وقال ابن مسكويه بنشوء الحيوان من النبات ، وأن الانسان ناشىء من آخر سلسلة البهائم ، وانه بقبول الآثار الشريفة من النفس الناطقة وغيرها يرتقى الى مرتبة أعلى من مراتب البشر .

وقال عن المراتب التى يتدرج الانسان ممعنا فيها حتى

حصل على صورته الحاضرة انها مراتب القرود واشباهها من الحيوان الذى قارب الأنسان فى خلقته الأنسانية وليس بينهما الا اليسير الذى اذا تجاوزه صار انسانا .

وأشار الى هذا المعنى « ابن خلدون » شارحا تسلسل بعض الأحياء من بعض فقال « انظر الى عالم التكوين ، كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة بديعة التدرج ، فآخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له ، وآخر افق النبات مثل النحل والكروم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون والصدف .

ومعنى الاتصال فى هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالأستعداد الغريب لأن يصير أول أفق الذى بعده ، وقد اتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى من تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر والروية .

وهكذا فطن العرب الى التطور قبل دارون بمئات السنين ، وان كان دارون عرف الطرق والوسائل عن طريق التجربة وكان لرحلته الطويلة على السفينة بيجل أثرها فى تمكينه من التدليل على ما ذكره الفكر العربى الاسلامى فى هذا المجال . وهذا هو الذى أوصله الى القول بأنه عن طريق التطور تتغير الأنواع بمرور الحقب والدهور فى بطء شديد .

***

كما تحقق أن أبا بكر محمـــد بن محمد الطرطوشى سبق (نيقولا ميكافيـلى) فى التأليف فى سياســة الملك وأخلاق الأمراء ، وأن كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » سبق كتاب « الأمير » بأكثر من خمسة قرون .

وقد اكتشف الباحثون أن معظم مواد كتاب الطرطوشى قد نسقت فى كتاب الأمير ، وأن أبوابا كاملة قد ترجمت ، ويقول محمد لطفى جمعة فى دراسة له عن الكتابين [1] انه يوجد على الأقل عشرة أبواب متفقة بالنص مع ما يماثلها من كتاب الطرطوشى ، وان كتاب الطرطوشى به ٦٤ بابا فى مائتى صفحة من القطع الكبير فى حين أن كتاب ميكافيلى لا يزيد عن ثلث الكتاب وفصوله ٢٦ فصلا .

ومن المرجـح أن يكون كتــاب « سراج الملوك » قد ترجم الى اللغــة اللاتينية حتى نقل اليها فى أوائل عهــد الرينسانس ، والمعروف أن ميكافيلى كان يتقن اللغة اللاتينية وانه ترجم منها .

وقد أشار لطفى جمعة الى أنه قد جاءت على لسان الطرطوشى عبارات عربية التفكير والمبدأ هى نفسها التى صبغها الافرنج بصبغتهم .

ومن ذلك قوله « اعلم انك قد تخطىء فى العفو فى ألف قضية خـير من أن تخطىء فى العقوبة فى قضـية واحدة

---

(١) ١١ نوفمبر ١٩٣٢ ـ جريدة البلاغ .

(الباب ٢٦ ص ٧٥) . وقد نقل هذه العبارة ميكافيلى على هذا النحو « لئن حكمنا ببراءة عشرة مجرمين خير من أن نحكم بعقوبة برىء واحد » ، ويرى لطفى جمعة أن هذه العبارة قد كثر ترددها فى مؤلفات الغربيين وعدت من جوامع الكلم عند الافرنج حتى آن بعضهم حاول أن ينسبها الى مونتسكيو مؤلف روح الشرائع .

وقد سجل لطفى جمعة أن كتاب الطرطوشى فى أبواب ٦ ، ١٢ – ١٣ – ٢٣ – ٢٤ – ٣٠ – ٣١ – ٣٣ – ٣٨ – ٤٠ – ٤١ – ٤٤ – ٤٨ – ٥٥ – ٥٦ – يتحد مع ما كتبه ميكافيلى .

ويصل من ذلك الى القول بأنه لا يمكن أن يكون ذلك من قبيل توارد الخواطر التى لا يمكن أن تصل الى مثل هذه الدرجة ، حتى ليظن أن الطريقة عند الاثنين واحدة .

وقد سجل كثير من الباحثين الغربيين للطرطوشى أن عقله عقل تشريعى قضائى ، وهو فى نفس الوقت فيلسوف أديب وأن كتابه قد انطوى على مباحث طريفة لها مراجع فى الشرائع والآداب الانسانية .

***

ويسجل التاريخ للفكر العربى الاسلامى أولوية فى مجال كتابة المكفوفين التى عرفت بالحروف البارزة وانهم سبقوا الغرب فى استعمالها ، وقد عرف عدد من المخترعين لهذه

الطريقة بين العرب نخص بالذكر منهم « على بن احمد بن يوسف بن الخضر » المشهور بزين الدين الآمدى .

فقد سجل صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى فى كتابه « نكث الهميان فى نكت العميان » ، والذى استطاع أحمد زكى شيخ العروبة أن يحصل عليه مخطوطا فى أحدى مكتبات أوربا فنقله بالفوتوغرافيا وطبمه عام ١٩١١ وقدمه لمؤتمر العميان الذى عقد بالقاهرة فى فبراير ١٩١١

يقول المؤلف ان زين الدين الآمدى كان اذا طلب منه كتاب وكان يعلم أنه عنده نهض الى خزانة كتبه واستخرجه من بينها كأنه قد وضعه لساعته ، وان كان الكتاب عدة مجلات وطلب منه الأول مثلا أو الثانى أو الثالث أو غير ذلك أخرجه بعينه أو أتى به ، وكان يمس الكتاب أولا ثم يقول يشتمل هذا الكتاب على كذا وكذا كراسة فيكون الأمر كما قال ، واذا أمد يده على الصفحة قال عدد أسطر هذه الصفحة كذا وكذا سطرا .

كما أحصى ما كتب فيها بالقلم الغليظ أو بخطوط اخرى ، من غير اخلال بشىء مما يمتحن به . ويعرف أثمان جميع كتبه التى اقتناها بالشراء ، وذلك أنه كان اذا اشترى كتابا بشىء معلوم أخذ قطعة ورق خفيفة وفتل منها فتيلة لطيفة وصفها حرفا أو اكثر من حروف الهجاء لعدد ثمن الكتاب بحساب الجمل ، ثم يلصق ذلك على طرف جلد الكتاب من داخل ويلصق فوقه ورقة بقدره لتتأيد ، فاذا

شذ عن ذهنه كمية ثمن كتاب ما من كتبه مس الموضع الذى علمه فى ذلك الكتاب بيـده فيعرف ثمنه من تنبيت العـدد الملصق فيه .

وقد قرر المؤتمر ان زين الدين الآمدى هو أول مخترع للحروف البارزة .

ومما أورده الباحثون أن الفارابى سبق أنشتاين الى بعض النظريات فى النسبية ، وان الغزالى سبق هربرت سبنسر فى تخطيط الدولة والمدينة وقارن بين كل منهما وبين جسم الانسان ، فالغزالى يشبه الملك بالقلب واصحاب المهن الحرة بأعضاء الجسم ، والشرطة بعصب الأنسان ، والوزراء بحسن الادراك ، والقضاء بالشعور .

نظرية الجنس والدم

فى اكثر من بحث جرى الحـديث حول الجنس والدم حاول كتاب الغرب ـ وتابعهم فريق من كتابنا ـ الربط بين العبقرية أو العظمة عند طائفة من الشعراء وبين الجنس ، فابن الرومى وبشـار بن برد وغيرهم يوصـفون بأنهم من الجنس الآرى ويكون هـذا هو سر عظمـة آثارهم . فابن الرومى من أصل رومى ، وبشار بن برد من أصل فارسى ، وعبقرية كل منهما تعزى الى دمهما الآرى ، فابن الرومى قد تفرد بفن جديد من فنون الوصف فى شعره لم يسبقه اليه شاعر آخر ، فلا بد أن يكون مصدر ذلك عقليته الآرية . هكذا قال سليمان البستانى فى الالياذة والعقاد ، وبشار بن برد جدد أساليب الشعر تجديدا لم يكن أساسـه الخيال ويرجع ذلك فى تقدير اسماعيل مظهر الى عقلية آرية موروثة عن أب فارسى جعلته ينزع الى الواقع المحسوس .

***

وقد جرى هذا القول فى ظل تيار غربى كان قد بلغ مداه فى الثـلاثينات من هـذا القرن هو القـول بالآرية والسامية ، وقد أثيرت هذه النظرية ووسع نطاقها من اجل

اتهام العرب والمسلمين بالقصور عن عقلية الغرب ، وقد وصفت العقلية السامية بالغيبيات والاسراف فى الخيال .

وقد حمل لواء هذه الدعوة كاتبان غربيان هما جوبينو ورينان ، وتقوم النظرية على وجـود فوارق طبيعية بين الساميين والآريين ، ومنها ظهرت فكرة تميز الرجل الأبيض الذى حمل أمانة الحضارة ولواء المدنية ، وقد قامت نظرية الجنس أساسا وفق مخطط سياسى استعمارى على أساس التفرقة العنصرية .

وترى هذه النظرية أن هناك اختـلافات جوهـرية : جسمانيـة وذهنية بين الأجنـاس البشرية وبين الآريين والساميين بالذات .

وقد اتصل هذا بمحاولة لتفسير التاريخ تفسيرا يقوم على أساس محتوم هو انتقاص كل سامى ورفع كل ما هو آرى ، واتصل هذا بالأدب العربى ، فجـرى البحث عن شخصيات ليست عربية أساسا لمحاولة ابراز النظرية من خلالها .

وقد أشار الكونت دى جوبنيو الفرنسى عام ١٨٥٨ الى أنه ما دام هناك شعوب عليا ، وما دام قانون الطبيعة يعطى الغلبة للآرى المتفوق فان من حقه أن تكون له السيطرة وأن يقبض بيده على مقدرات العالم .

ويقرر رينان انه أول من قرر بأن الجنس السامى أدنى من الجنس الآرى ، ويقول ليون غوتييه تلميـذ رينان : ان

العقلية السامية وبالتالى العقلية العربية هى عقلية مفرقة فى مقابل العقلية الآرية وهى عقلية مجمعة أو موحدة ، وأن الفكر الآرى عقلانى تفسيرى وأن الفكر السامى غيبى معجزى . (يقصد أنه يؤمن بالغيب والمعجزات) .

***

ولا نطيل فى تصوير تطور هذه النظرية فليس هذا مكانها ، وانما نعرض لها هنا فيما يتصل بالفكر العربى الاسلامى ، ولقد أثبتت الأبحاث المنصفة أن هذه النظرية لم تكن فى الواقع نظرية علمية وانما كانت نظرية سياسية أريد بها تثبيت قوائم الاستعمار بالفت فى عضد الملونين فى آسيا وافريقيا ، ومحاولة تحطيم معنوياتهم الفكرية فى مجال الغزو الثقافى والفكرى الذى أطلق عليه « حركة التغريب » .

ولقد عورضت هذه النظرية معارضة علمية من كثير من الباحثين الغربيين أنفسهم ، وآخر ما كتب فى هذا كتاب « نحن الأوربيون » الذى كتبه جوليان هكسلى .

وقد استعرض نظرية الجنس والسلالة وعارضها بالنظرية الحديثة الخاصة بالوراثة البيولوجية وظروف تطبيقها على الانسان ، وما يكتنف تكوين الأمم من العوامل ، وخلص الى القول بأن نظرية الجنس والسلالة ليست سوى علم مزعوم تستتر وراءه غايات سياسية .

وقد أشار كثير من العلماء الى أن حضارة مصر وفينيقية

وبابل والصين هى من أعظم الحضارات التى شهدها التاريخ ، ومع ذلك فان الأجناس الآرية لا علاقة لها بها .

ولقد كانت الحضارة التى انشأها ما يسمى بالشعوب السامية أعظم أثرا وأطول عمرا من الحضارة التى أنشأها ما يسمى بالأجناس الآرية . وضرب المثل أيضا بأن بلاد السويد والنرويج والتى يعد أهلها المثل الأعلى للجنس الآرى لم ينشئوا حضارة ما . وأن الحضارة الحديثة التى قامت دعائمها فى ايطاليا واسبانيا وفرنسا وشعوبها ليست من الجنس الآرى ، بل ان بعض العلماء قد ذهب الى أبعد من ذلك فقرر أن وجود جنس آرى بدائى موضع شك عدد كبير من العلماء وأن الأمير فى هذه النظرية يرجع فى الأغلب الى ما وجد من مشابهات بين اللغات الهندية واللغات الأوربية قبل نحو مائة وخمسين عاما . وقد أكد العلماء أن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل والنسل . وأن اللغات قد تنتقل من أمة الى امة دون أن يكون بينهما علائق نسلية .

والرأى الآن أن البيئة الحضارية لا السلالة هى الأساس ، وأن الوراثة العرقية أو وراثة الدم لا تؤثر فى الاستعداد العام أو الذكاء الفطرى ، وأن العبرة بالبيئة . فقد ثبت أن وحدة الموروثات فى التوائم التى خرجت من بويضة واحدة ، وبالتالى التى لها استعدادات عقلية واحدة لا تستلزم وحدة النتائج فى اختبارات الذكاء ، فى حين أن وحدة ظروف البيئة

تحقق ذلك ، ومن هنا ظهر كثير من مفكرى الاسلام الذين انحدروا من أصول غير عربية فان الأمم التى دخلت فى الاسلام لم تظل هى نفسها كما كانت من قبل ، فقد تحولت بفعل البيئة الجديدة والفكر الجديد الى قوم جدد [1] .

ومن هنا كانت العبرة بالبيئة لا بالدم ، فان من أقام فى بيئة معينة وعاش حياة مجتمعها وتكلم لغتها وأحس احساسها كان منها باللغة والمكان والاحساس . وهى فى مجموعها روابط أشد أصالة من روابط الدم ، وبذلك استحال أن تكون الأنساب اللغوية أنسابا للأمم التى تتكلم بها ، وأن وحدة اللغة لا تدل على وحدة الأصل أو النسل . وقد أسماها « چان فينو » خرافات ومزاعم باطلة وقال « دينكير » (Denicker) فى كتابه «الأقوام والعروق» انه لا يوجد جنس ــ أى عرق ــ آرى وأن كل ما هنالك عبارة عن فصيلة لغات آرية . والرأى على أن عقلية الانسان ونفسيته من محصولات حياته الاجتماعية لا من موروثات دمه المادية [2] .

وبالنسبة لابن الرومى أو بشار ، فقد نشأ كل منهما فى بيئة عربية ، وابن الرومى لم يكن يعرف اللغة اليونانية

---

(١) الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا (العربى) تشرين الاول ١٩٦٠

(٢) ساطع الحصرى : كتابه ــ آراء واحاديث اللغة والادب ١٩٦١

وكذلك أبوه ، وقد تكونت عبقريتهما من عـوامل البيئـة وعناصر الشخصية [1] .

وأن تاريخ آداب الأمم الأوربية لا يخلو من ذكر أدباء وشعراء عظام منحدرين من أنسال أجنبيـة عن الأمة التى نشأوا بها ، ومع ذلك لا يقدم مفكرو تلك الأمم على ارجاع مزاياهم الى نوع الدم الذى يجرى فى عروقهم [2] .

أما اتصاف العقلية الآرية بالبعد عن الخيال والمنزوع الى الواقع المحسوس ، فقد كذبه ما عرف عن شعراء الفرس من غلو فى الخيال ، وقد أورد ساطع الحصرى نموذجا لذلك فى مدحهم الملوك بأنهم يستطيعون اقتلاع النجوم من السماء ليرصعوا بها سيوفهم .

أما اتهام العقل السامى بالغيبيات ، فقـد كذبته كل الأدلة ، وأن ما عرف عن ابن الهيثم وابن حزم وجابر بن حيان وغيرهم من منهج علمى يرد هذا القول ، وقد أدلى ارنست رينان بشهادة منصفة فى هذا المجال : « ان للساميين عقلية علمية رياضية تنفى الأساطير والغيبيات » .

***

---

(١) الدكتور عمر فروخ ــ ابن الرومى .

(٢) ساطع الحصرى : مجلة التربية والتعليم م ١٩٢٦

وجملة القول ان الحضارة العربية التى أنشأها العقل الموصوف بالسامى قد امتــدت من الأندلس الى الصين ، وكان لها طابعها المميز فى كل مجالات الانشاء والبناء والعلوم ، وقد انصهرت فيها خلاصات الثقافات وعصارات الحضارات الهندية والمسيحية واليونانية والرومانية وحولتها الى كيانها وصهرتها فى بوتقتها ، وأنشأت حضارة عرفت بالايجابية والبناء ، وكانت آثارها واضحة فى جامعات القاهرة وبغداد وقرطبة ، وكانت هى الأســاس الأول الذى قامت عليــه النهضة فى أوربا .

ويتصل بالحديث عن نظريات الجنس والدم ، نظرية بعث الحضارات والثقــافات القديمة فى محاولة لربط بعض أجزاء الأمة العربية بهــا كالفرعونية والفينيقية والبربرية وللوصول الى هدف مقصود هو اثارة شبهة اقليمية الفكر فى الأمة العربية .

غير أن الحقــائق لا تلبث أن تنكشف عن أن كل هــذه التيارات ليست الا روافد من نهر الأمة العربية الكبير ، وفى أكثر من دراسة لباحثين فى التاريخ والآثار تبين الرأى القائل بأن الفــراعنة عرب ، وأن كثيرا من علمــاء الألمان يشاركهم أحمد كمال الأثرى المصرى الأول ، وأحمد زكى الملقب بشيخ العروبة ، على أن المصريين جاءوا اما من برزخ السويس أو من جهة باب المندب وأن أهل مصر اصلا من عرب الشمال (الحجاز ونجد وبادية الشام) وعرب الجنوب

عن طريق اليمن وأن بروكش الألمانى وايبرى ولوث وليبلن النرويجى .

ويزيد احمــد كمال على ذلك بأن اللغـــات المصرية والافريقية من أصل عربى ويقول : « فاللغة المصرية ما هى الا لغة قبائل الأعنـــاء التى سكنت مصر وما جاورها من الأقاليم . هى أصل اللغة العربية بلا مراء » وقد أرجع كل كلمات اللغة المصرية القديمة الى اللغة العربية واكد نظرية مجىء المصريين الأقدمين من بلاد العــرب من باب المندب فالحبشة فالسودان فمصر . وقال فى النهاية : ان العنصرين المصرى والعربى يرجعان الى أصل واحد ولغة واحدة .

وأشار الى ذلك جبر ضومط فى كتابه « اللغة العربيـة » الى رأى احمد كمال وقال : « ظهر لنا من الاتحاد بين اللغة العربية واللغة المصرية القديمة والف قاموسا كبيرا أورد فيه الوفا من الكلمات الهيروغليفية الموافقة للغة العربية الحضرية فى الغالب ، أما موافقة تامة أو موافقة بضرب من التحريف أو القلب والابدال المعهود مثله فى اللغتين ، وقال ان أحمد كمال يرى أن العربية أصل للغة المصرية القديمة المدونة بالقلم الهيروغليفى ، ومن لوازم هذا ان أصحاب المدنية كانوا من العرب .

والمعروف أن أحمدكمال أول أثرى مصرى قد ألف قاموسا فى ٢٢ مجلدا ضخما قضى فى تأليفه ربع قــرن ، وما زال محفوظا لدى نجله الدكتور محرم كمال عالم الآثار الكبير وجملة

قوله أن أغلب اللغة التى استعملها قدماء المصريين عربية الأصل لفظا ومعنى فضلا عن أنها شبيهة بالعربية التى نستعملها اليوم وأن لغة المصريين القدماء هى لغة جزيرة العرب لا تختلف احداها عن الأخرى الا بالامارات وبعض المترادفات فهما لهجتان فى لغة واحدة .

وجملة القول فى هذا أن المصريين جنس من العرب ولغتهم جزء من اللغة العربية .

أما « الفينيقية » فهى دعوى كالفرعونية استغلها الغزو الثقافى الغربى لتمزيق وحدة الفكر العربى الاسلامى ، وقد كشفت أبحاث التاريخ والآثار معا على أن الفينيقيين عرب ، وأن « فينيقيا » لفظ يونانى معناه النخلة وضعه الاغارقة بعد أن زاروا هذه المنطقة الممتدة من أنطاكية شمالا الى غزة جنوبا فقد هتفوا عندما شاهدوا « النخلة فينكيا » وتناول شعراؤهم وكتابهم هذا الاسم فتداولوه وذكره هوميروس فى شعره وهيرودوت فى كتاباته وبطليموس الجغرافى الفلكى فى أبحاثه .

وجملة القول فى هذا أن جماعة من عرب البحرين قحطانية الأصل هاجروا من الخليج الفارسى قبل المسيح بألف سنة . فأقاموا قريبا من مدينة بابل ـ على رواية أحمد زكى باشا ـ ثم ساحوا الى الشمال الى شاطىء بحر الشام فأسسوا طرابلس وبيروت وصور وصيدا وعكا وحيفا .

وقد وجد تشابه كامل بين حضارة البحرين وحضارة لبنان وفلسطين مما اثبت أن الحضارتين مرتبطتان برباط وثيق .

وقد ذكر هيرودوت « المؤرخ » صراحة وبصيغة التوكيد أن الفينيقيين جاءوا من الخليج الفارسي واستقروا فى ساحل الشام وأن استرابون « الأثرى » ذكر أن قبور البحرين مشابهة لأجداث الفينيقيين .

وبذلك يجمع مراجعات علمى التاريخ والآثار على أن اللبنانيين قحطانيون عرب من أهل الجزيرة العربية أصلا .

وبالنسبة للبربر نرى أغلب المؤرخين على الرأى القائل بأن البربر فى عمومهم أمة يمنية عارية قحطانية نزحوا من الجزيرة العربية الى السودان والمغرب والأندلس وجزائر البحر المتوسط . وأن هذه الأمة العارية القحطانية قامت بأول فتح للمغرب ونشرت العمران بالدم العربى القح فى ديار المغرب وسجلت لأول مرة ونهائيا عقد ملكية المغرب للعروبة على حد تعبير « عثمان الكعاك » فى كتابه البربر حيث يرى أن النسابة للبربر (من ابن حزم الى ابن خلدون) لا يجعلون للبربر عرفا فى غير حمير وأن البربر يكرهون جدا الى اليوم أن يقال انهم بربر ويسمون أنفسهم « امازيع » أى أشراف . وقد رد كثير من الباحثين العرب والأجانب المنصفين الرأى القائل بأن البربر من أصل لاتينى وقالوا انه لم يقم عليه أى دليل يؤيد له من العلم أو التاريخ .

ويقول المؤرخ « حسن السائح » من كتاب المغرب :
« أن الذين يدرسون اللغة البربرية يشهدون لها بأنه لا مجال للشك فى انتسابها الى الأرومة السامية التى لا تجمع البربر والعرب جمعا لغويا فقط بل تجمع بينهما جنسيا وسلاليا وأن اللغة البربرية من العائلة اللغوية السامية كأختها العربية وهى من اللغات السامية المعبر عنها فى تاريخ اللغات (**Protosemitique**) وهى تتشابه مع العربية فى كثير من المفردات ، وأصل الاشتقاق ومخارج الحروف وقد لقحت هذه اللغة مرة أخرى بالعربية القحطانية بعد جلاء يهود خيبر عند ضواحى يثرب واقامتهم بشمال افريقيا ، كما نقحت قبل ذلك بالعربية قبل الميلاد بخمسة قرون أى عام ٤٨٠ ق.م. حيث هاجرت قبائل كنعانية عربية الى بلاد افريقيا .
ومن هنا تبدو هذه الدعوات الثلاث وقد انهارت أمام الحقائق التاريخية التى تؤكد وحدة الفكر العربى الاسلامى بوحدة هذه الروافد مع نهر الأمة العربية الكبير .

الفراعنة عرب عرباء : أحمد زكى باشا : ١٣ اكتوبر ١٩٢٩ المقطم
الفينيقيون : ومفاخرهم ـ المقتطف مارس ١٨٨٨
حبر ضومط : المنار م ١٥
(كتاب) البربر : عثمان الكعاك : تونس ١٩٦٢

دورنا فى القرون الوسطى

جرت عبارة « القـرون الوسطى » على أقلام الكتاب المتأثرين بدعوة التغريب والغزو الثقافى على أنها عبارة امتهان للعرب وللفكر العربى الاسلامى ، وفترة ظـلام وانحطاط سبقت حركة النهضة الأوربية « الرينسانس » ويحددون وقتهـا بأنهـا من عام ٤٧٦ الى ١٤٥٣ م . (من سـقوط روما الى سقوط القسطنطينية) .

والواقع أن هذه الفترة هى فترة ظلام وركود وانحطاط بالنسبة لأوربا والغرب وحده بعد سقوط الدولة الرومانية وغارة القبائل المتبربرة عليها ، ثم ما وقعت فيه أوربا من تسلط الكنيسة واحراق الكتب واقامة محاكم التفتيش وقتل جاليليو والوقوف فى وجه الفكر الحر .

أما بالنسبة للشرق فقد استقبلت المنطقة يقظة فكرية بظهور الاسلام بالغة المدى ، وقد اتسع نطاق هذه اليقظة وامتد فى خلال مائة عام حتى بلغ الصين شرقا والأندلس غربا ، وزحف على أوربا نفسها وكاد أن يطوقها لولا أنها تجمعت على ايقافه فى معركة « بواتيـه » المسماة بلاط الشهداء عام ٧٣٢ م

***

ولسنا نحن الذين نقول هذا ، بل يقوله الكتاب الغربيون المنصفون ، فالمؤرخ ل. أ. سيديو يقول فى كتابه « تاريخ العرب » : لقد كان العرب وحدهم ممثلى الحضـــارة فى « القرون الوسطى » فدحروا توحش أوربا التى زلزلتهـا غارات أمم الشمال ولم يشتعل النور فى أوربا الا بعـد ثمانية قرون عندما ظهر العرب .

ويقول حيدر بامات فى كتابه « مجالى الاسلام » : يعود الى العرب شرف ادخالهم الى مباحثهم مناهج الترصـد والتجربة التى يتألف منها أسس البحث العلمى الحديث . ولم يكونوا فى هذا فقط أرقى رقيا لا حد له من علماء الغرب (فى القرون الوسطى) . بل كانوا أيضا أرقى من العالم اليونانى اللاتينى فى حقل العلوم .

ويقول بريس دافن فى كتابه « الفن العربى » : انه بعد سقوط الدولة الرومانية لم يكن هناك شعب يستحق أن يعرف غير الشعب العربى ، وذلك أولا لكثرة فطاحل الرجال الذين أخرجهم هذا الشعب العظيم ، وثانيا لما أحدثته فنون هذا الشعب وعلومه من التقدم العجيب فى العالم مدة قرون عديدة .

ويقول الدكتور لويجى رينالدى « قام العرب فى ظلمات بربرية القرون الوسطى باعادة نور الحضارة والمدنية الذى كان قد انطفـــأ فى جمـــيع بلاد الغـــرب والشرق حتى القسطنطينية » .

ويقول جوستاف لوبون : « كان تأثير العرب فى الغرب عظيما ، واليهم يرجع الفضل فى حضـــارة أوربا ، فاذا ما رجعنا الى القرنين التاسع والعاشر للميــلاد يوم كانت المدنية الأسلامية فى اسبانيا زاهرة باهرة ، نرى أن المراكز العلمية الوحيدة فى عاصمة بلاد الغرب كانت عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين ، يفاخرون بأنهم أميــون لا يقراون ولا يكتبون ، وكانت الطبقة العامة المستنيرة عبارة عن رهبان فقراء جهلة يقضون الوقت بالتكسب فى ديارهم بنسخ كتب القدماء .

وطال عهد الجهالة فى أوربا وعم تأثيره بحيث لم تعــد تشعر بتوحشها ، ولم يبد فيها بعض الميل للعلم الا فى القرن الحادى عشر ، وبعبارة أصح فى القـــرن الثانى عشر ، ولما شعرت بعض العقول المستنيرة قليلا بالحاجة الى نفض كفن الجهل الثقيل الذى كان الناس ينوءون تحته ، طرقوا أبواب العـــرب يستهدونه ما يحتاجون اليه ، لأنهم كانوا وحدهم سادة العلم فى ذلك العصر ، ولم يدخل العلم أوربا فى الحروب الصليبية كما هو الرأى الشائع ، بل دخل بواسطة الأندلس وصقلية وايطاليا ، وفى ســـــنة ١١٣٠ م أنشئت مدرسة للترجمة فى طليطلة أخذت تترجم الى اللاتينية أشهر مؤلفى العرب ، وعظم نجاح هذه الترجمات وعرف الغرب عالما جديدا، ولم تفتر الحركة فى هذا السبيل خلال القرن الثانى عشر

والثالث عشر والرابع عشر ، وما عرفت « القرون الوسطى » المدنية الا بعد أن مرت من لسان أشياع محمد .

فالى العرب والى العرب وحدهم لا الى رهبان القرون الوسطى ممن كانوا يجهلون حتى اللغـــة اليونانية يرجع الفضل فى معرفة الأقدمين ، والعـــالم مدين لهم على وجه الدهر لانقاذهم هذا الكنز الثمين » .

وقال الدكتور سارطون [1] : « ان بعض الغربيين الذين اعتادوا ان يستخفوا بما أسداه الشرق الى العمران يصرحون بأن العرب والمسلمين نقلوا العلوم القديمة ولم يضيفوا اليها شيئا ما ، هذا الرأى خطأ ، فلو كان قد حدث لتوقف سير المدنية بضعة قرون ، لذلك فان العرب كانوا أعظم معلمين فى العالم فى القـــرون الثـلاثة : الثامن والحـــادى عشر والثالث عشر للميلاد » .

وقال الدكتور يوسف شخت [2] : لقد تتلمذت أوربا على العرب مدة خمسـة قرون نهلت فى أثنائها من حياض العلوم

---

(١) الدكتور جورج سارطون العالم الامريكى الذى اعترف بفضل العرب فى كتابه تاريخ العلوم : Introduction to the History of Scunce.

(١) الدكتور يوسف شخت : مستشرق المانى وباحث انشأ كثيرا من الفصول والابحاث عن فضل العرب وكانت له صداقة وطيدة بأعلام الأدب العربى أمثال احمد تيمور واحمد زكي وغيرهم .

العربية ، وبهذا أعدت نفسها لما تنتج الآن من البحوث العلمية الحديثة .

وقال برنارد لويس [1] : ان أوربا فى « القرون الوسطى » تحمل دينا مزدوجا لمعاصريها من العرب . فقد كان العرب هم الواسطة التى انتقل بها الى أوربا جزء كبير من ذلك الميراث الثمين ، كما تعلمت أوربا من العرب طريقة جديدة للبحث وضعت العقل فوق السلطة ، ونادت بوجوب البحث المستقل والتجربة ، وكان لهذين الدرسين الفضل الكبير فى القضاء على العصور الوسطى والايذان بعصر النهضة .

***

وليس بعد هذه الشهادات دليل على صدق ما ذهبنا اليه من أن اتهامنا بالعصور الوسطى المظلمة ليس صحيحا ، وأننا كنا فى هذه العصور مصدر الضياء والنور للعالم والانسانية .

---

(١) برنارد لويس العالم الفرنسى صاحب كتاب العرب فى التاريخ .

الانفصال عن الماضى

من أبرز الدعوات الوافدة على عالمنا العربى منذ الاحتلال الغربى فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر دعوى أن الاتصال بالماضى مذمة ، وأن الأمم الناهضة قد انفصلت عن ماضيها ، وأن استمرار الارتباط بالماضى يعوق التقدم ، ويحول دون بلوغ الأمة المكانة المرموقة فى موكب التطور .

وقد حملت هذه الفكرة أقلام دعاة التغريب والجادين فى ركبه ممن يكتبون باللغة العربية ، مضت تزين الدعوة وتحاول أن تعززها بأكاذيب خادعة ، حتى خلقت فى الجيل الذى نشأ فى ظلها عقدة الاتصال بالقديم كأنما هو شىء مزدرى .

وبذلك نشأ فى الأمة العربية جيل سطحى يجرى وراء البريق ويأخذ بالقشور ويحاول أن يقلد الغرب ، فاذا قرأ لم تمتد يده الا الى تلك الكلمات الساخرة بأمجاد أمتنا ، لمحاولة بث الشكوك والأوهام بالأديان والقيم والملل العليا الجارية وراء الأهواء والأوهام والخرافات والأكاذيب الخادعة .

وعلا صوت موجة الانفصال عن الماضى والتنكر للقديم على كل صوت ، فقد كانت تحملها صحف ضخمة الاسم ، ذائعة تدخل كل قطر من أقطار الأمة العربية تكتب بها أقلام شهيرة ، فكان للدعوة فى نفوس الشباب المتطلع أثر عميق .

كان ذلك فى الثلاثينات من هذا القرن ، ودعوة «التغريب» التى يقوم بها مفكرو الغرب على اشدها ، غير ان الوقائع كذبت هذه الدعوة وأنكرتها ، فقد تبين أن الغربيين الذين يحملون هذه الدعوة الينا لا يؤمنون بها فى بلادهم ، وأنهم هم انفسهم لم ينفصلوا عن ماضيهم ، ولم يقطعوا علاقتهم به ، بل أنهم حينما بدأوا حياتهم الجديدة فى عصر النهضة (الرينسانس) جعلوا من التراث اليونانى فى (الأدب) ، والرومانى فى (القانون) قاعدة أصيلة أكدوها ووقفوا عندها طويلا ، وجددوا أساطيرها القديمة التىعلاها الغبار ، فأحيوها بأسلوب حديث ، وعلى نحو مثير يأخذ بالألباب فى اخراج جميل واعداد يسير وصور واغلفة جميلة . وأذاعوا ذلك فى الصحف والأندية وأدخلوه المدارس وأشادوا به وبلغوا فى ذلك مبلغا لا حد له .

ثم جاءوا فأنشأوا أدبهم الحديث على هذا « الأساس » وربطوا بين فكرهم الجديد وبين هذا القديم برباط وثيق ، حتى أنهم ليغضون الطرف عن أى أدب لا يتصل فيه الحديث بالقديم ، ولا الحاضر بالماضى ، وأن أى كاتب لا يفعل ذلك فهو فى نظرهم مقصر عاجز جدير بأن يقصى عن مكان الشهرة والتبريز .

وليس هذا التراث اليونانى فى حقيقته الا بعض القصص والأساطير القديمة التى أغضى عنها العرب حين ترجموا التراث اليونانى فى الفلسفة والعلم ، لأنهم لم يجدوا فيه فنا

جديدا أو ثقافة نافعة ، بل مزيجا من الخيال المغرق ونداء الغريزة والاعيب الحواة .

وبينما يفعل الغرب هذا نقف نحن هذا الموقف الشائن ، تحت ضغط سيطرة « عقدة الأجنبى » الذى دعا بيننا بدعوته الباطلة فصدقناها واخذنا بها ، وقع هذا بالنسبة لتراثنا العربى الاسلامى الضخم الحافل بالآثار الحية النابضة بالقوة والايجابية ، هذا التراث المتصل بالحياة نفسها فى جميع فنونها الروحية والعقلية والقانونية والاقتصادية والعلمية .

هناك حيث تجد العشرات بل المئات من أعلام الفكر والأدب ، أمثال ابن سينا وابن خلدون والمتنبى والكندى والفارابى وابن رشد والجاحظ والغزالى وابن تيمية ، وعشرات وعشرات لهم آثار حية باقية على الزمن ، مرتبطة بالحياة لا تنفصل عنها وهى ما زالت تنبض قوة وتجرى مع التطور والزمن .

يحدث هذا بينما تجد الغرب فى بدء نهضته يقوم على أساس هذا التراث فيترجمه ويبدأ به ويأخذ منه ثم يمضى على هديه ، ويعترف بذلك أعلام منصفون من كتاب الغرب وفلاسفته أمثال سيديو وجوستاف لويون وتوماس ارنولد .

فنحن الذين حملنا « أمانة الحضارة » ابان العصور الوسطى المظلمة التى عاشتها أوربا ، عندما كانت تمضى فى ظل قسوة الجحود ، كانت منارات الأندلس والمغرب والقاهرة

وبغداد ودمشق تشع حضارة وثقافة ، وتحمل لواء التطور والنهضة ، وتزيد فى العلم الذى ترجمتـــه عن اليونانية وتضيف اليه .

والواقع أن الشعوبيين والأميين وهما طرفا الخيط فى الدعوات الوافدة ، هم الذين يحملون على الماضى ويحملون معاول الهدم لقطع ما بيننا وبين ماضينا ، ولا شك أن فصلنا عن الفكر العربى الاسلامى سيؤدى بنا الى الضياع فى دوامات لا حد لها ، وسيحطم معالم شخصيتنا وينحرف بهـا عن أصولها .

فاذا قيل : ان الماضى عبء ، وان التاريخ قد يصبح مصدر جمود أو تخلف ، فان العبرة فى الأمر ترجع الى نظرتنا للماضى والتاريخ ، هذه النظرة اليقظة المتحررة ، فنحن لا نرى فى الماضى الا مصدرا لدفعنا الى الأمام ، وقوة تعيننا على أن نأخذ مكاننا فى مجال الحضارة ، وبما أننا كنا على قيادة هـذه الحضارة يوما فلا بد أن نظل فى ركب الأمم المندفع الى الأمام . فتاريخنا مصدر قوة ونقطة انطلاق ، ونحن لا ننظر اليه لكى نقلده ، بل لنحـــافظ على مقوماتنا الأساســية فى فكرنا وشخصيتنا التى بدأت به ، ونزيد عليها ونجددها ، ونحافظ فى نفس الوقت على ملامحها الأصلية ، ونحن نؤمن بأن « من لا ماضى له لا حاضر له ولا مستقبل له » . وقد كان ماضينا وتاريخنا ولا يزال صفحة من صفحات المجد والنصر تهدينا وتحفزنا ، فقد كنا سادة الدنيا بالقيم العالية من السماحة

والكرامة والبذل ونبالة المعاملة والخلق ، وكان لنا دورنا فى بناء الحضارة ودفعها الى الأمام ، ونحن نعرف من تاريخنا وماضينا عوامل الضعف التى قضت بتخلفنا ، فنحن حين ننظر الى الماضى نأخذ العبرة ونعمل على الا نقع فى أخطائنا السالفة .

وعندنا الا نقطع ما بيننا وبين ماضينا ، ولا يستغرقنا ماضينا ، ولا نترك تاريخنا ولا نخضع له ، وقد كان فكرنا العربى الاسلامى قادرا دائما على التقدم ومواجهة التطور والاستجابة ، فهو فكر مفتوح له أسسه الأصيلة القابلة للالتقاء بالفكر الانسانى .

هذا فضلا عن أن فى تاريخنا « قيما » ليست تراثا بمعنى « المتحفية » ولكنها لا تزال حية تتفاعل فى حياتنا وفكرنا ، وليس أمرنا فى هذا أمر الفكر اليونانى والرومانى الذى انفصل عن الفكر الأوربى الحديث ، بل ان فكرنا العربى الاسلامى ما زال مجراه عميقا ممتدا ، بالرغم من سقوطنا تحت سيطرة الاحتلال والاستعمار منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ومن ثم فقد كانت دعوى الانفصال عن الماضى خدعة كبرى ، اذاعها الغرب بيننا ليفصلنا عن شخصيتنا الأصلية النابضة بالحياة ، وحتى يجعلنا صورة مشوهة من الغرب ، كان هدفها هو فصلنا عن اللغة العربية ، وعن القرآن الكريم وعن الاسلام وعن الأمة العربية ، وعن تراث أربعة عشر قرنا لم تستطع أن تفنيه مؤامرات هولاكو فى بغداد حين اقام بالكتب جسرا على

نهر الفرات ، ولا النار التى أوقدها الكردينال فى ساحات الأندلس حيث حرق بها آلاف الأسفار والكتب .

وما تزال الكتب الباقية بعد هذا تكوّن تراثا ضخما حيا ، ليس منعزلا عن الحياة ، وليس هو من الأساطير والخرافات ، وانما هو قوة كبرى تحمل قيم الحياة والفكر وقضايا الانسان فى معركة التطور ، ويحمل مع ذلك القيم والمثل العليا والروحيات الهادية الى حياة أفضل ، ما أجدرنا اليوم أن نجعلها أساس نهضتنا ، وأن نعيد بعثها على النحو الذى صنع به الغرب أساطير اليونان المغرقة فى الجنس والخيال .

واليوم يعود الغرب ليعلن فى صراحة أن حضارته المادية قد بلغت غايتها فى العنف والعسف ، وأنها فى حاجة الى « سناد » من ثقافة الشرق . هذه الثقافة العربية التى تميزت عن ثقافة الشرق الأقصى « الهند والصين » المتسمة بالروحية الخالصة ، وثقافة الغرب (أوربا وأمريكا) المتسمة بالمادية الصرفة ، فهنا فى هذه (الأمة الوسط) يجد الغرب ثقافة تمتزج فيها الروح بالمادة ، وحاجة الدنيا بحاجة الروح والعقل والمصير .

والخلاصة هى :

- أن دعوى الانفصال عن الماضى خدعة كبرى ترمى الى أن نتوه فى الأممية .

- نحن لا نخضع للتاريخ ولا نغتر بالماضى فلا نظن اننا أعظم من غيرنا ولا نحس بالقصور أمام الأمم .
- نحن نستفيد من التاريخ ونناقشه ونكشف أخطاءنا ونستفيد منها ونشيد ببطولاته فى نفس الوقت ليفتح لنا الطريق .
- ليس الماضى هو صورتنا الآن ، والمثل الأعلى يتطور ولكن الأصول والأسس تظل ثابتة .
- ان قيمنا ليست تاريخا متخفيا ، ولكنها لا تزال حية تتفاعل مع فكرنا وثقافاتنا ، وأن لفكرنا رسالة «انسانية » عليا تحتاج اليها البشرية فى أزمتها الحالية .
- نحن لا ننعزل عن ماضينا فمن لا ماضى له لا مستقبل له .

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى - الفجالة